أبو الحسن الندوي

النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم

المختار الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

كلمـــة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصـــلاة والسلام على سـيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ·

وبعد ·· فهذه الرسالة التى نتشرف بتقديمها ونتقرب الى الله بعرضها ، كان من المفروض اضافتها كفصل مستقل الى كتـابنا « النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن » وهو مجموع محاضرات ألقاهـا المؤلف فى الجامعة الاسلامية فى المدينـــة المنـــورة فى ذى القعدة ١٣٨٢ هـ وقد كانت ست محاضرات حضرها واستمع اليها أبنـاء الجامعة وأساتذتها ونخبة من كبار العلماء وأعيان المدينة ، وتلقيت بالقبول وحسن الاصغاء وصدرت ثلاث طبعات للكتـاب أولاها فى الهند والثانية فى القاهرة ، والثالثة فى بيروت ، والطبعة الرابعة فى القاهرة والخامسة فى طريقها الى الصدور فى دمشق ·

وكانت طبيعة الموضـوع تقتضى أن يكون البحث فى اختتـام النبوة وكون محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الرسل وخاتم النبيين ، هو نهاية المطاف فى هذا الكتاب ومسك الختام ولكن المؤلف أعجلته الظروف عن الحديث فى هذا الموضوع الذى لا يقبل المر السريع والنظر العابر ، وكان يتحين فرصة يتفرغ فيها لهـذا الموضوع الجليل وينصف له انصـــاف رائد للحق وباحث علمى ، وتحول مسئولياته الدعوية وأشـــغاله التأليفية دون تحقيق هـذه الرغبة حتى مضى على ذلك أكثر من عقد من السنين ·

وقد أثار بعض المغرضين فى الزمن الأخير حول هذه العقيدة نقعا وجعلوها من القضايا التى تحتـــاج الى عرض جديد واقنـاع مزيد

دين يبلغ ذروة الكمال ، وأمة تضطلع بأعباء خلافة النبوة :

تمت ارادة الله العليمة الحكيمة ، القادرة القاهرة ، فى البلوغ بهذا الدين - الذى سماه الاسلام - الى حيث أرادته حكمته ورحمته ، واقتضته حاجة البشرية على اختلاف الزمان والمكان ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله حق جهاده،وربى أمة تقلدت مهام النبوة ومسؤولياتها من غير نبوة ، وكلفت النهوض بالدعوة ، وصيانة الدين من التحريف ، والوصاية على العالم ، والحسبة على البشرية فى كل زمان ومكان ، وفي كل عصر ومصر ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس • تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(١) •

وتحقق فى علم الله ، وفى قضائه وقدره وجود خلفاء الرسل ، وأئمة الهدى ، وأطواد فى العلم واليقين ، ينفون عن هذا الدين فى كل زمان « تحريف الغالين • وانتحال المبطلين • وتأويل الجاهلين » وأخبر بذلك لسان النبوة ، فقال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »(٢) •

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ •

(٢) رواه مسلم عن ثوبان •

اعلان انتهاء سلسلة النبوة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وانقطاعها بعده :

ولما تحقق كل ذلك فى عالم التكوين والتشريع – وقد سبق به علم الله وقضاؤه – أعلن انتهاء تعليم البشر العقائد والشرائع ، وما تتوقف عليه سعادتهم فى الدنيا ، ونجاتهم فى الآخرة بالنبى الذى يأتيه الوحى من الله عن طريق جبريل « الروح الأمين » خاصة والملائكة عامة(١) .

وذلك معنى النبوة ، فيقول الله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون »(٢) ، ويقول : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين »(٣) ، ويقول : وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه عليم حكيم(٤) ، ويقول : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين »(٥) ، ويقول : « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى »(٦) ، ويقول : « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على

---

(١) يظهر من تتبع الآيات القرآنية ، والسنة الالهية فيما يختص بالأنبياء المرسلين أن جبريل هو الواسطة غالبا . وفى عامة الأحوال بين الله تبارك وتعالى ، وبين الأنبياء فى وحى النبوة والشرائع ، وتدل على ذلك دلالة واضحة الآيات التى نقلناها ، ولكن أكثر المتكلمين ومن صنف فى العقائد لم ينوهوا بكون جبريل هو الواسطة الغالبة فى شأن النبوة والرسالة واقتصروا على ذكر الوحى .

(٢) النحل : ٢ .

(٣) الشعراء : ١٩١ – ١٩٥ .

(٤) سورة الشورى : ٥١ ، وذهب أكثر المفسرين الى أن المراد بقوله : ويرسل رسولا ، الملك .

(٥) سورة النحل : ١٠٢ .

(٦) النجم : ٣ – ٧ .

قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين »(١) ، ويقول : « انه لقول رسول كريم • ذى قوة عند ذى العرش مكين • مطاع ثم أمين • وما صاحبكم بمجنون • ولقد رآه بالأفق المبين • وما هو على الغيب بضنين • وما هو بقول شيطان رجيم »(٢) •

أما العلوم الوجدانية والتلقائية ، والحكم والمعارف ، وبعض الأخبار التى يلهمها بعض النفوس الزكية أو أصحاب الرياضات والمجاهدات ، والغواصون فى العلوم والحقائق ، وما قد يسمعه بعض الناس من هواجس ونداءات غيبية ، فليست من النبوة فى شىء ، وقد يسمعها بعض أصحاب الرياضات من غير المسلمين ، وقد استفاض ذلك ، فانكاره من المكابرة ، وليست دليلا للهداية ، فضلا عن النبوة والرسالة ، وقد صح فى حديث صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى اسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء » (٣) ، وأعلن

---

(١) البقرة : ٩٧ • (٢) سورة التكوير : ١٩ ـ ٢٥ •

(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة فى مناقب عمر رضى الله تعالى عنه •

قد صرح الشيخ محى الدين ابن عربى الحاتمى الطائى الأندلسى (م ٦٣٨ هـ) بأن الهام الأولياء وأصحاب الرياضات محصور فى العلوم والأخبار ، لا فى الأحكام والشرائع ، وما كان من ذلك فلا يعتمد عليه ، ولا يعبأ به أصلا • (راجع « الفتوحات المكية » باب ٣١٠ ، ج ٣ ص ٥٠ وج ٢ ، باب ٢٨٣ ، ص ٨٢٣) •

وقال شيخ الاسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية (م ٧٢٨ هـ) فى كتاب النبوءات بعد ما ذكر أن الوحى يتناول وحى الأنبياء وغيرهم ، كالمحدثين الملهمين « فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى اليهم هذا الحديث الذى هو لهم خطاب والهام ، وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين فى كل ما يقع لهم ، فانه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من ايحاء الرب ، بل من ايحاء الشيطان ، وانما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء •• الخ ص ٦٧) •

وقد توسع فى هذا الباب محققو الصوفية ، وأئمة المعرفة والتحقيق ، ومن أراد التفصيل فعليه بكتب القوم ، خاصة رسائل الامام أحمد بن عبد الأحد السرهندى (م ١٠٣٤ هـ) •

أن النبوة قد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وذلك كله فى عبارات صريحة مكشوفة ، لا يتطرق اليها شك ، ولا ترتقى اليها شبهة ، ولا يجد متسعا للنقاش فيها ، واثارة الشكوك حولها الا من فى قلبه مرض ، أو كان له غرض .

أساليب القرآن وطرقه فى تقرير هذه الحقيقة وغرس هذه العقيدة :

واتخذ القرآن لذلك أساليب متنوعة بليغة ، عميقة الأثر فى النفس ، كبيرة القيمة عند العقل .

- منها ما يختص بصاحب الرسالة الذى ختم به الأنبياء وانتهت عليه سلسلة النبوءات ، فقال :

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما »(١) . وقد استخدم القرآن لغرس هذه العقيدة والفكرة لغة وتعبيرات ألفها العرب الذين نزل فى لغتهم القرآن ، وكلفوا فهمه ، ثم تبليغه الى العالم وهى اللغة التى كانوا يتفاهمون بها ، ويقضون بها حاجة فى نفوسهم ولم تكن فى لغتهم ــ على سعتها وغناها ــ كلمة أدل على مفهوم الانتهاء والاكمال من كلمة « الخاتم » وذلت به ألسنتهم فى حديثهم وشعرهم ، ولا تعرف لغتهم للخاتم والختام والختم معنى غير ما أراده القرآن من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء الذى لا نبى بعده »(٢) .

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .

(٢) راجع « لسان العرب » لابن منظور ، و « صحاح العربية » للجوهرى . و « المحكم » لابن سيدة . و « القاموس المحيط » للفيروزآبادى . وشرحه « تاج العروس » للزبيدى ، والمراجع اللغوية وكتب التفسير المعتمد عليها .

صفات لا تليق الا بالنبى الخالد والرسول الخاتم :

وكذلك قد وصف القرآن صاحب الرسالة الأخيرة الذى ختم به الأنبياء بصفات تشير اشارة بليغة الى خلود رسالته ، وكونه قدوة صالحة ، وأسوة حسنة ، فى كل عصر وجيل ، ولكل طبقة من الناس ، من غير تقييد بزمان أو مكان فقال : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا »[1] ، وقال : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »[2] وقال : « يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا ومنيرا »[3] .

وليس من عادة العقلاء ، والأدباء البلغاء ـ فضلا عن العليم الخبير ، علام الغيوب ـ أن يسبغوا على ملك راحل وسلطان زائل نعوتا وألقابا لا تليق الا بمن استقر حكمه ، واستتب أمره ، وليس من عادة الحكماء الذين ينظرون فى عواقب الأمور ، ويزنون الكلام وزنا دقيقا أن يبالغوا فى التهنئة على مولود عرفوا أن حياته قصيرة وأنفاسه معدودة[4] .

---

(١) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٢) سورة آل عمران : ٣١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٤٦ .

(٤) لذلك أنكر شيخ الاسلام ابن تيمية أن يكون اسحاق هو الذى أمر أبوه ابراهيم بذبحه ، فان ذلك يتنافى مع حكمة الله تعالى فى التبشير ببقاء ذريته . وقد قال كما نقله تلميذه ابن قيم : « وكيف يسوغ أن يقال ان الذبيح اسحاق ، والله تعالى قد بشر أم اسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال الله تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لابراهيم لما أتوه بالبشرى : « لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط ، وامرأته قائمة ، فضحكت فبشرناها باسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب » فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ، ثم يأمره بذبحه » (زاد المعاد ج ١ ص ١٦) .

القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلهـــا ، وكيف أمكن ذلك ؟

ولما كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القـــدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة لطبقات الناس جميعـــا ، وللاجيـــال البشرية على اختلاف الزمان والمكان ، اتجهت عنـــاية الله الى حفظ أخباره وآثاره ، وصفاته وأخلاقه وعاداته ، وتصرفاته ، وصرف الله قلوب المسلمين الى تتبع كل ما يصدر عنه من حركة وسكون ، وأخذ ورد ، وعادة وعبادة ، وألهمهم الاعتنـــاء به اعتناءا لا مزيد عليه ، كأن سائقا يسوقهم الى ذلك ٠

وقد تجلت هذه العناية الالهيـــة بكل وضوح فى الحديث والسيرة ، وفى كتب الشمائل ، وفيما أثر عن الوصافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته ، فى صفته التى لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب صفة أكثر منها دقة ، وأعظم منهـــا استيعابا للملامح البشرية ، والدقائق الخلقية ، ولنظرة عـــابرة فى شمـــائل الامام أبى عيسى الترمزى (٢٠٩/٢٧٩هـ) ــ على سبيل المثال ــ تكفى للايمان بأن هذا الاهتمام البليغ الخارق للعادة بتسجيل دقائق الخلق والخلق ، والعادات والعبادات ، والأقوال والأفعال وكل ما يتصل بهذه الشخصية الكريمة اتصالا يتصوره الذهن الانسانى ، وفى بسط وتفصيل ، لا نظير لهما فى سير الأنبياء ، ولا فى تاريخ العظماء[١] لم يكن مجرد مصادفة ، ولا وليد الاتجـاه الشخصى ،

---

(١) وقد عنى علماء الأمة الاسلامية بجمع التفاصيل الدقيقة عن الحياة النبوية، والتراتيب الادارية ، والحرف والصـــنائع والمتاجر والمنـــاصب وأنواع العلوم والمشخصات التى كانت على عهد تأسيس المدنية الاسلامية النبوية عناية لا مثيل لها فى أمم السابقين وحسب القارىء أن يقرأ كتاب « التخريج » لأبى الحسن على الخزاعى التلمسانى (٧١٠ ــ ٧٨٩ هـ) وتهذيبه وتكميله للعلامة الشيخ عبد الحى الكتانى الذى أسماه « التراتيب الادارية » وهو موسوعة فى كل ما تهم معرفته عن عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والحياة فيه ٠

والعمل الفردى ، وكذلك من تصفح كتاب « الأدب المفرد » للامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى (١٩٤/٢٥٦ هـ) الذى خصه مؤلفـــه العظيم ، بما ورد فى الآداب الاســـلامية ، ومكارم الأخلاق ، وحسن العشرة والاجتماع ، وحقوق الصحبة ، وتهذيب النفس ، وأدب الحياة ، معتمدا فى كل ذلك على ما صح عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ونقل عنه ، علم علم اليقين أنها لم تكن فلتة من فلتات الدهر ، انما هو تقدير العزيز العليم ليتحقق العمل فى كل عصر وجيل ، بقوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » وقوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ، ولئلا يكون لمتعلل بانقراض الآثار ، وانقطاع الأخبار عذر فى ترك الائتساء والاقتداء كما هو الشأن فى قضية الأنبياء الذين لم يبـــق لبعضهم الا الاسم ، أو أخبـــار مبتورة لا تكفى للاقتداء والاقتفاء .

أما الحديث النبوى فيصح أن يسمى « سجل الوقائع اليومية » وشبه مذكرات ـ اذا صح هذا التعبير ـ لمدة ثلاث وعشرين ســنة قضاها النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعد ما أكرمه الله بالنبوة ـ على ظهر الارض ، ترينا كيف كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعيش فى هذه الحياة ، كيف كان يقضى نهاره وليله ، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق والعادات ، والميول والرغبات ، والقول والعمـــل ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التى عاشت قريبا ، بل عن الشخصيات المعاصرة أحيانا ، وهو مجموع صور ناطقة يتعرف بها الانسان بنبيه ، ويسعد بصحبته ، ويتبرك بأنفاسه ، وكأنه حضر مجلسه ، واستمع لحـــديثه ، وعاش معه ، وكان ذلك أبعث على الاقتداء ، وأبعد عن مضار الوثنية ، وعبادة التماثيل مما جرت عليه الأمم القديمة ، من تصوير أنبيائها ونحت تماثيلهم .

وحسب القارىء أن يقرأ قصة حجة الوداع فى كتب الحديث ،

فقد سجل الرواة فيها كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة ،وكل حادث من حوادثها التى لا تسترعى الانتباه ، وليست لها قيمة تاريخية كبيرة ، ولا يحتفل بأمثالها فى رحلات العظماء والرؤساء والملوك والأمراء ، والعلماء والنبغاء(١) ٠

وبفضل هذه الثروة الحديثية استطاع المؤلفون الحاذقون فى مختلف العصور والبقاع أن يؤلفوا للمسلمين كتبا تكون دستورا كاملا لحياتهم ، حتى اذا أراد المسلم ـ مهما كانت مهنته وطبقته ـ ألا يخطو خطوة ولا يبت فى أمر ، ولا يمارس نشاطه الا فى ضوء الهدى النبوى صلى الله عليه وسلم أمكنه ذلك ، والكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كثيرة ، وفى أكثر لغات العالم الاسلامى وهى بين بسيط ووسيط ووجيز ، أحسنها « زاد المعاد(٢) فى هدى خير العباد » للعلامة شمس الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الملك المشهور بابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) أنبغ تلاميذ شيخ الاسلام ابن تيمية ، وأحد أعلام الأمة ٠

ويتجلى هذا السر الالهى فى وضوح هذه السيرة وخلودها وكونها بمتناول المؤتسين والمقتدين ، اذا قارن الانسان بين هذه السيرة وبين سير الأنبياء السابقين وحياتهم ، فأكثرها توارت فى

---

(١) اقرأ فى كتب الصحاح تفاصيل تطبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع عند الاحرام واشعاره لهديه واحتجامه وتحديد مكانه من الجسم وموضعه من الطريق وتحديد المنازل بين المدينة ومكة ولم يفت الراوى أن يقيد خروج حية ليلة منى وافلاتها من القتل وأسماء من كان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الرحلة بل من أردفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حياته كلها ٠

(٢) قد صدرت للكتاب عدة طبعات فى مصر والهند ٠ وأمامنا طبع المطبعة الميمنية بمصر ١٣٢٤ هـ وقد تم الكتاب فى مجلدين ضخمين وفى ٩٢٦ صفحة بالقطع الكبير والحرف الدقيق ٠ والكتاب مكتبة فى السيرة والحديث والفقه ، وقد تلقاه علماء كل عصر بالقبول ٠

ظلمات الجهل والاهمال ، والحوادث التاريخية الدامية ، وقد أدت رسالتها فى فترة زمنية خاصة ، ومشى فى ضوئها الجيل الذى كلف اتباعهم ، ثم لم تبق حاجة الى الاحتفاظ بها ، والى أن نتوارثها الأجيال ، ويكفينا أن نستعرض حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، فكان آخر الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتنتسب اليه أمة عرف شغفها بالعلم والتأليف ، وافراطها فى حب نبيها ، واطراؤها له اطراءا بلغ حد التأليه والتقديس ، ولكنها لم تستطع أن تعرض على العالم الا نتفا من أخباره وأقواله التى لا تكون هيكلا من حياة بشرية كاملة ، يقلده الانسان فى حياته الفردية ، أو يسير فى ضوئه مجتمع فاضل ، وقد كان الاعتقاد السائد فى العالم المسيحى قبل أيام أن « العهد الجديد » يتضمن أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح وأخباره ، فانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص فى الموضوع فى الزمن الأخير الى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوما من حياته ، لا أكثر ولا أقل(١) •

أما الأنبياء الآخرون ، وعظماء الملل والديانات السابقة ، فيصح القول بأن أخبارهم وصور حياتهم مطمورة فى ركام الماضى ، وهنالك حلقات رئيسية لا يكمل بغيرها التاريخ ، ولا يتسنى بدونها الاقتداء والتقليد ، مفقودة لا يمكن البحث عنها ، والاهتداء اليها فى هذا العصر المتأخر(٢) ، وهذا عين ما تقتضيه الحكمة الالهية

---

(١) يقول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات فى مقال له فى دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ج ١٣ ، ص ١٧١٠ « ينبغى أن يتنازل الانسان عن محاولة وضع كتاب فى سيرة المسيح ، بكل صراحة ، فانه لا وجود للمادة والمعلومات التى تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والأيام التى توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوما •

(٢) اقرأ للتفصيل الكتاب القيم « الرسالة المحمدية » للعلامة السيد سليمان الندوى المحاضرة الثانية والثالثة والرابعة •

ومنطق الأشياء ، فالمثل الانسانية لها أعمـــار طبيعية ، وحيوية محدودة ، فاذا انتهت لم تكن مصلحة فى تناقلها ، أما ما كانت الحاجة اليه قائمة دائمة فبقى على اختلاف الزمان والمكان ، واستمر وانتشر ، وأورق وأثمر •

صلة الأمة الوثيقة الدائمة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وما يتصل به :

ومن قرأ ما ورد من الآداب والأحكام عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى سورة الأحزاب ، وفى سورة الحجرات ، وفى سورة التحريم ، وفى سورة المجادلة ، وما ورد من تكريم الله تعـــالى له ونعمه عليه ، فى سورة الفتح ، وسورة الضحى ، والانشراح ،عرف بدلالة العقل وسلامة الذوق أنها نعوت نبى قد بعث للأجيال كلها ، وللعصور كلها ، وأن شمس رسالته لا تقبل الكسوف وأن نجمـه لا يقبل الأفول ، ولا شك أن بعثة نبى ولو لم يأت بشريعة جديدة ، تتنافى مع الحكمة الالهية فى هذا الثناء العاطر ، والوصف البالغ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وربط الأمة ربطا وثيقا دائما بهذا النبى الكريم ، وتعاليمه وأسوته ، وأصحابه وأهل بيته ، والأرض التى ولد فيها ونشأ ، ودعا فيها الناس الى الله وشـــعائر الله فيها ، ولا شك أن النبى الذى يبعث بعده ، أو يدعى النبوة ، يحول بين الأمة ونبيها الأول أراد ذلك أو لم يرد ، ويضعف صلتها به (صلى الله عليه وآله وسلم) شعر بذلك أو لم يشعر ، وتلك طبيعـــة الأشياء ، وخاصة الفطرة البشرية ، وقد أثرت عقيـدة الامامة عند الشيعة الامامية فى صلة هذه الطائفة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فتحول تيار الحب والعاطفة ، والحماس والاندفاع الى الأئمة الاثنى عشر ــ رحمهم الله تعالى ــ وتجلى ذلك فى مجال التأليف والتصنيف والأدب والشعر ، وشد الرحال الى المشاهد والهيام بها ، وأصبح الولاء للائمة ، والحب لعلى بن أبى طالب ، وابنه الحسين ــ رضى الله

تعالى عنهما ــ هو شعار هذه الطائفة ودثارها ، قد ملأ كل فراغ في العقيدة والعاطفة والحماس ، فما ظن العاقل بنبي يبعث في هذه الأمة أو غيرها ، في عصر من العصور ، ألا ينافس الـــولاء له ، والانضواء الى رايته ، حب الأمة لنبيها محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل ما يتصل به ويعزى اليه من تعاليم ، وسنن وهدى ، وأصحاب ولغة وآداب ، وتاريخ وحضارة ، انه ناموس من نواميس الفطرة التى لا تتغير .

وذلك عكس ما فهم من الدين بالضرورة ، ودل عليــه القرآن ونطقت به السنة المتواترة ، فقد جاء في الحديث الصحيح ، « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين »(١) ويقول القرآن : « النبى أولى بالمؤمنـــين من أنفســـهم وأزواجــه أمهاتهم »(٢) .

وصف القرآن للرسالة المحمدية وما يقتضي ذلك :

ومن هذه الأساليب القرآنية ، ما جـــاء في وصف الرسالة التى حملها الرسول صلى الله عليه وسلم الى الخـــلق أجمعـــين ، والشريعة التى جاء بها ، فهو من أكبر الأساليب والدواعى لهـــذا الاعلان الصارخ ، المبرر بل الموجب لانتهـــاء سلســـلة النبــوءات والرسالات السماوية على محمد صلى الله عليه وسلم ، فصرح القرآن بلسان عربى مبين ، لا غموض فيه ولا لغز ، بأن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال ، والوفاء بحاجات البشر ، والصلاحية للبقاء

---

(١) رواه الشيخان والنسائى . وفى بعض الروايات « من نفسه » . (الطبرانى فى معجميه الكبير والأوسط) .

(٢) سورة الأحزاب : ٦ .

والاستمرار ، فقال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا »(١) .

وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة فى حجة الوداع سنة عشر للهجرة ، ولم ينزل بعدها ـ كما تقول أكثر الآثار ـ حلال ولا حرام ، ولم يعش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا اليوم الا احدى وثمانين ليلة ، وقد فهم كبار الصحابة الذين كانوا من أعرف الناس بأسرار هذا الدين ، ومقاصد التشريع ، وأقرب الناس الى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأعظم الناس حبا له ، وحرصا على بقائه ، كان فى مقدمتهم أبو بكر وعمر ، دنو ما كانوا يحذرونه من مفارقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحوقه بالرفيق الأعلى ، فقد بلغ رسالة الله ، وكمل الدين ، وتمت نعمة الله على عباده ، فمنهم من بكى ، ومنهم من تنبأ بدنو هذه الساعة(٢) ، وفهم علماء اليهود الأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم ، وتاريخ الديانات ، أنها كرامة خص بها المسلمون ، ومفخرة لهذا الدين ، لا يشاركه فيها دين آخر ، ورأوا أن اليوم الذى نزلت فيه هذه الآية جدير بأن يخلد ، ويحتفل به على مر العصور ، ويبدى فيه المسلمون سرورهم وامتنانهم(٣) .

وهكذا فهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى نزلت عليه هذه الآية ، فقال فى خطبته يوم حجة الوداع ، ينصت اليها أكثر من مائة ألف انسان ويحفظونها « أيها الناس ! انه لا نبى بعدى ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ،

---

(١) المائدة : ٣ .

(٢) راجع كتب الحديث والسيرة وكتب التفسير .

(٣) راجع صحيح البخارى : كتاب التفسير . والصحيح لمسلم وجامع الترمذى وسنن النسائى ومسند أحمد . وراجع تفسير ابن كثير .

وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم ، وأطيعوا ولاة أمركم ، تدخلوا جنة ربكم »(١) .

وكذلك صرح القرآن بأن هذا الدين قد قدر له البقاء ، والغلبة والانتشار ، وأنه سيبلغ ذروة المجد والعز ، وتعلو كلمته ، ويمتد ضوؤه ، ويتبين صدقه ، فقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا »(٢) . وقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون »(٣) ، وقال : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون »(٤) ، وكل هذه الكفالات ، والضمانات ، والنبوءات ، والاعلانات تدل بدلالة النص واشارته على أن هذا الدين هو رسالة الله الأخيرة ، وحاجة البشرية كلها ، على اختلاف العصور والأمصار ، وأن الله هو بالغ أمره فيه ، كره الناس ذلك أو أحبوه ، وسالمه الحساد والمعارضون أو حاربوه ، وكل ما كان ذلك شأنه ، ووردت فيه هذه الأخبار الصادقة ، والتحديات البالغة فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يقبل العقل السليم أن يقبل النسخ والتغيير ، أو يحتاج الى نبى جديد ، ورسول مبعوث .

عموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب والطبقات ، واستغناؤها عن تطوير وتعديل :

وكانت الديانات السابقة ، والرسالات القديمة ، بعضها

---

(١) أخرجه ابن جرير فى « تهذيب الآثار » وأخرجه ابن عساكر .
(« كنز المال » ج ٥ ص ٢٩٥ طبعة حلب) .

(٢) سورة الفتح : ٨ .

(٣) سورة الصف : ٩ ، وسورة التوبة : ٣٣ .

(٤) سورة الصف : ٨ .

محدودة فى شعب ، أو مختصة باقليم ، أو خاصة بفترة زمنية ، قصيرة أو طويلة[١] ، ولم تكن الديانة اليهودية فى زمن من الأزمان دعوة عامة للخلق ، ولم يكلف اليهود – فى ضوء من نصوص كتبهم المقدسة – تبليغ الرسالة الى الأمم جميعا ، بل وردت نصوص تمنع عن ذلك ، وتحصر نشاطهم الدعوى فى نطاقهم العنصرى المحدود[٢] ، وكان من الطبيعى والمعقول جدا أن يميزوا دائما بين بنى اسرائيل وبين الشعوب والقبائل الأخرى ، وأن يضعوا المخير والشر ، والبر والاثم ، مقاييس مختلفة ، تختلف باختلاف السلالات والشعوب .

تقول السيدة الفاضلة المهتدية مريم جميلة Margaret Mareus اليهودية سابقا ، فى كتابها « الاسلام ازاء أهل الكتاب ماضيا وحاضرا » باللغة الانجليزية : « ليس أن اليهود لا يبلغون دينهم الى غيرهم عمليا ، بل انهم لا يرحبون بالدخول فى ديانتهم ، ولا أعرف الا مثالين فى تاريخهم الطويل حين دخل غير اليهود فى اليهودية فى عدد كبير ، كان ذلك مرة فى اليمن ، فى زمن سبق البعثة المحمدية ببضعة قرون ، ومرة ثانية لما اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية فى مملكة خزار التاتارية الأصل ، التى عاشت مدة قصيرة فى روسيا »[٣] .

ويدل على ذلك دلالة واضحة الأسلوب الذى ألف فيه « العهد

---

(١) وقد وردت فى « العهد القديم » نصوص وتصريحات بأن رسالات أنبياء بنى اسرائيل كانت مؤقتة ومختصة بزمان خاص ، اقرأ على سبيل المثال (١٨ : ١٥) و (١٨ : ١٨) و (٣٣ : ١ – ٢) من سفر التثنية فى التوراة ونبوة أشعيا الأصحاح ٤٠ وسائر أسفار بنى اسرائيل والزبور والأناجيل مملوءة بمثل هذه النصوص .

(٢) راجع كتاب الخروج باب ٣ وكتاب الأستثناء باب ٣٢ – ٤ .

(٣) Islam versus ahlalkitab Past and Present (22-23)

القديم » الموجود فى أيدينا اليوم ، والروح التى تسيطر على كل سطر منه ، فيشعر القارىء لهذا الكتاب بأنه يطالع ملحمة اليهود ، أو كتاب مناقب اليهود ، أو كتاب الأنساب الخاص بهم ، ولا يجد فيه من تعليمات خلقية وروحية ، ومن حث على مكارم الأخلاق العامة والمساواة بين البشر ، والاعتراف بكرامة الانسان ، وحث على الزهد ، وتهذيب النفس ، وايثار الآخرة على الدنيا ، واللهج بذكر الجنة ونعيمها ، والتخويف من النار وعذابها ، ما يهذب النفس ويرقق القلب ، ويشعره بكرامته ومسئوليته اذا كان ينتمى الى سلالة غير اسرائيلية ، فالكتاب بقصصه وأخباره وأحكامه ، يدور حول اليهود الذين يعتبرهم دينهم وكتابهم « شعب الله المختار » •

وكذلك كانت دعوة سيدنا المسيح خاصة لبنى اسرائيل ، وقد صرح بأنه لم يبعث الا ليرعى خراف بنى اسرائيل الضالة(١) واقتصرت رسالته على قراهم وأرضهم ، والمنسوبين اليهم ، ولما لفت نظره الى من لم يتصل ببنى اسرائيل بنسب أو بقرابة فاستعطف عليه ، قـال : انى لست ذلك الرجـل الذى يعطى خبز الأولاد للكلاب »(٢) •

أما أمر الديانات الشرقية الآسيوية ، كالبرهمية الهندية وما شاكلها فأمرها أدهى وأمر ، وكانت تعتبر فى غالب الأحيان غير الآريين وغير البراهمة أنجاسا مناكيد ، وتساوى بينهم وبين الدواب ، وتعاملهم أحيانا معاملة الكلاب(٣)

---

(١) راجع انجيل متى باب ١٥ آية ٢٤ وباب ١٠ آية ٦ و٧ •

(٢) متى باب ١٥ آية ٢٦ •

(٣) اقرأ للتفصيل كتاب المؤلف « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الباب الأول : الفصل الأول عنوان نظام الطبقات الجائر ص ٥٨ • وامتيازات طبقة البراهمة ص ٥٩ والمنبوذون الأشقياء ص ٦٠ •

فكانت حكمة الله ورحمته بعباده تقتضيان بعثة نبى جديد ، يحمل تعاليم جديدة ، وتعديلات فى الشرائع والأحكام ، اقتضاها تغير الزمان والمكان ، والأحوال والظروف ، واقتضاها بعض الحوادث ، فتتناول التسهيل أحيانا وتحليل ما حرمه المتدينون الغلاة ، أو تحريم ما أحله المتوسعون المتنعمون ، أو السلاطين المترفون ، فيقول سيدنا عيسى بن مريم « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون »(١) .

وقد أعلن القرآن انتهاء هذين الموجبين لنبوة جديدة ، أما ما يتصل بعموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب ، وطبقات الناس جميعا ، فقال : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هو ، يحيى ويميت »(٢) وقال : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(٣) . وقال : «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين»(٤) وقال : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »(٥) ، وقال : « ان هو الا ذكر للعالمين »(٦) .

فالدين الاسلامى حق مشاع ، وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب ، والعناصر والأجناس ، والأسر والبيوتات ، والبلاد والأوطان ، ليس فيه احتكار مثل احتكار بنى لاوى من اليهود ، أو البراهمة من الهنود ، لا يتميز فيه شعب عن شعب ، ولا نسل عن نسل ، وليس الاعتماد فيه على العرق والدم ، بل الاعتماد فيه على الحرص والشوق ، وحسن التلقى ، وزيادة التقدير ، والتفوق

---

(١) النساء : ٥٠ .
(٢) الأعراف : ١٥٨ .
(٣) سبأ : ٢٨ .
(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧ .
(٥) سورة الفرقان : ١ .
(٦) سورة ص : ٨٧ .

فى الجهاد والاجتهاد ، والدين والتقوى ، وقد قال الله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا • ان أكرمكم عند الله أتقاكم • ان الله عليم خبير »(١) ، وأعلن النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى(٢) » • وروى الامام أحمد بن حنبل(٣) بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس »(٤) •

وأما ما يتصل بالحاجة الى التغيير والتسهيل ، فصرح بأن هذه الشريعة قد جاءت سهلة سمحة ، توافق الفطرة المستقيمة والعقول السليمة ، فى كل زمان ، فقال : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر »(٥) ، وقال : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج »(٦) •

ان التشريعات المجحفة ، والقيود المرهقة ـ من تحريم ما أحل الله ، وتضييق ما وسع الله فيه ـ التى أخذت بها الأمم السابقة نفسها ، والتزمت ما لم يلزمها الله به ، كانت كدرت عليها صفو الحياة ، وعقدت الدين ، وجعلته عبئا ثقيلا لا يطاق حمله ، وجاءت النبوة الأخيرة ، والشريعة السمحة الحنيفية ، فأزالت هذه القيود

---

(١) الحجرات : ١٣ •

(٢) رواه الترمذى وغيره •

(٣) مسند الامام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٩٦ •

(٤) قد بسط شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية فى كتابه النفيس « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » دلائل عموم البعثة المحمدية من القرآن والحديث والآثار والأخبار (الجزء الأول ص ١٢٦ ـ ١٤٠ وص ١٦١ ـ ١٦٦) فليراجع •

(٥) البقرة : ١٨٥ •　　(٦) الحج : ٧٨ •

والأغلال التى كانت من اختراع العباد الغلاة ، والمشرعين القساة ، وأعادت الأمور الى نصـــابها ، يقول القرآن فى وصف هذا النبى الذى ختم الله به الأنبيـــاء ، وأرســـله الى الناس كافة بشـيرا ونذيرا ٠

« يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ٠ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغـــلال التى كانت عليهم »(١) ٠

وذكر أن كبار العقـــلاء والمشرعين لو حاولوا مراعاة الحاجة البشرية ، والأحوال المختلفة ، لم يبلغوا حيث بلغ علم الله المحكم ، فقال فى آيات المواريث : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضة من الله ، ان الله كان عليما حكيما »(٢) ٠ ويقول فى سياق آيات الزواج وما للزوجين من حقوق وفرائض : « يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم ٠ والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ٠ يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا »(٣) ٠

الصحف السماوية السابقة والقرآن في مـــيزان العـــلم والتـــاريخ :

وما زالت الصحف السماوية السابقةللقرآن عرضة للتحريف والتبديل ، والضياع والتلف ، فان الله سبحانه وتعالى لم يتكفـل بحفظها وبقائها ، بل أسند ذلك الى علمائها وحملتها ، ولم تحتج اليها البشرية ، أو الأمم التى خوطبت بها ، الا لفترة من الزمان ،

---

(١) الأعراف : ١٥٧ ٠ (٢) النساء : ١١ ٠
(٣) النساء : ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ٠

فقال : « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء »[١] .

وقد ثبت ذلك تاريخيا وتواتر وأقرت به الأمم والطوائف ، التى نزلت فيها هذه الصحف .

وقد استهدفت صحف العهد القديم للتلف والاحراق والابادة، بصورة واضحة ، وباتفاق المؤرخين اليهود ثلاث مرات فى التاريخ .

المرة الأولى حين زحف بختنصر (Nabuchodonosor) (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م.) ملك بابل على اليهود سنة ٥٨٦ ق. م. وأشعل النيران فى بيت المقدس الذى حفظ فيه النبى سليمان عليه السلام ألواح التوراة ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، وأخذ من سلم من القتل من اليهود أسيرا الى بابل حيث مكثوا فيه خمسين سنة ، وقد أعاد « عزرا » الصحف الخمس الأولى التي تسمى « تورة » بحفظه ، وقيد الحوادث فى أسلوب تاريخى ، ثم ضم اليها نحميا السلسلة الثانية من الكتب ، مضيفا اليها زبور داؤد .

والمرة الثانية حين كر انطيوخوس (Antiochus) الرابع الملقب أبيقانس ، ملك أنطاكية اليونانى على بيت المقدس (سنة ١٦٨ ق. م.) وأحرق الصحف المقدسة ، ومنع من تلاوة التوراة ، وممارسة الشعائر اليهودية رسميا ، ونشط يهودا المكابى فى جمع الصحف المقدسة وترتيبها ، وضم اليها السلسلة الثالثة من صحف « العهد القديم » .

والمرة الثالثة حين هجم تيطس (Titus) الامبراطور الرومانى (٤٠ ـ ٨١) على بيت المقدس فى ٧ من سبتمبر سنة ٧٠ م ، ودمره

---

(١) المائدة : ٤٤ .

بما فيه من هيكل سليمان وحوله الى أنقاض وخرائب ، واستولى على الصحف المقدسة ، ونقلها الى بلاطه فى روما تذكارا للفتح ، وأجلى اليهود عن القدس ، واستعمر غيرهم حول المدينة(١) .

ومقاييس حفظ الصحف المنسوبة الى الأنبياء المستفادة من الوحى ، وبقائها على أصالتها ، ونصوصها ، ووجهة نظر أصحابها اليها ، تختلف عن مقاييس المسلمين ، وعقيدتهم عن الكتاب المنزل من الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ، اختلافا كبيرا ، فلا يمنع دخول بعض زيادات وتعديلات فى هذه الكتب عن اضافتها الى الوحى ، وتسميتهابالصحف السماوية عند اليهود، وقد لايتحرجون من اضافة تأليفها الى الأنبياء ، فقد جاء فى مختصر دائرة المعارف اليهودية ما يلى :

« ان الأخبار اليهودية وان كانت تلح على أن صحف العهد القديم من تأليف « الأبطال » ، أو الشخصيات التى تتحدث عنها هذه الصحف ، وذلك لا يبعد عن الصواب ، ولكنهم لا يتحرجون فى الاقرار بأن بعض هذه الصحف تناولها التعديل والزيادة فى العهود المتأخرة »(٢) .

وجاء فى دائرة المعارف اليهودية ما معناه :

« ان الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة ، من تأليف النبى موسى ، باستثناء ثمانى آيات أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى ، وما زال الربيون يعنون بتناقضات واختلافات وردت فى هذه الصحف ،

---

(١) راجع كتب تاريخ الصحف المقدسة . وراجع دائرة المعارف اليهودية . وقد وردت اشارات الى هذه الحوادث فى صحيفة نحميا مكابين وغيرها .

(٢) Vellentin's one volume Jewish Encyclopaedia London p. 93.

وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ولباقتهم »(١) .

وتزيد هذه الموسوعة الكبيرة : « ان اسفينوزا (Spinoza) يقول : « ان الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم ليست من تأليف موسى ، بل هى من تأليف عزراء(٢) ، وان آخر ما وصل اليه البحث العلمى ، هو أن هذه الكتب (الخمسة الأولى) ترجع الى ثمانية وعشرين (٢٨) مصدرا استقيت واستفيدت منها هذه الكتب »(٣) .

أما صحف الديانات الأخرى التى تعتبر أعرق فى القدم ، وفيها صحف الهند العتيقة التى تدين بها الشعوب الهندية الآية وتعتقد أنها نزلت من السماء ، وأنها من كلام فاطر الكون ووحيه ، فقد أحاطت بها هالات من الظلام والغموض ، والجهل والأساطير ، وجهلت العهود التى نزلت فيها والأشخاص الذين خوطبوا بها ، ودخل فى صلبها الشىء الكثير من الزيادات ، والتفسيرات واندرست اللغات واللهجات التى نزلت بها ، حتى أصبح الجزم بتحديد عهدها ، والوصول الى حقيقتها ، ومقاصدها ، والتمييز بين أصولها وشروحها ، شبه المستحيل ، يقول أحد كبار العلماء المختصين فى تاريخ هذه الصحف ، وهو الموسيو A. Parth عضو المجمع الآسيوى الملكى فى باريس (The Société-Asiatique of Paris) وهو يتكلم عن « ويدا » فى كتابه « ديانات الهند » :

---

(١) Jewish Encyclopaedia V. 9 p. 589.

(٢) ص ٩٥٠ ملتقط من تفسير مولانا عبد الماجد الدريابادى بالانجليزية .

(٣) نفس المصدر ص ٥٩٠ .

« ان هذه الصحف لا تدعى أنها من الله ، ولا تحاول أن تخفى ـ بطريقة صناعية ـ عمرها ، لقد دخل الشىء الكثير من الزيادات والتحريفات فى صلب هذه الكتب وصميمها ، وقد كان الدافع الى ذلك الاخلاص وحسن النية(١) ولكن رغم ذلك من الصعب تحديد عمرها ، أو تقديره على الأقل ، ان أجزاء « برهمنا » (Brahmana) التى كتبت فى آخر ما كتب ، لا تتقدم بداية عهدنا الا خمسمائة سنة ، أما بقية ما اشتملت عليه « ويدا » فهى موغلة فى قدم يصعب معه الجزم بشىء ، أما ما كان أعرق منه فى القدم فمن المستحيل ابداء الرأى فيه »(٢) .

أما « أوستا » صحيفة المجوس الفرس ، فلا يختلف شأنها عن شأن « ويدا » ، ولعل نصيبها من البحث العلمى ، والقيمة التاريخية أقل ، والشبهات حولها أقوى ، يقول (Robert H. Pfeiffer) رئيس فرع اللغات السامية فى جامعة هارورد ، فى دائرة معارف الديانات ، وهو يتحدث عن « أوستا » :

« ان أصل « أوستا » كما تقول الحكايات كان جامعا للعلوم ، وقد أباد معظمه الاسكندر ، وقد ألف كتاب فى القرن الثالث المسيحى مما تبقى من الكتاب كان يحتوى على ٢١ جزءا تسمى (Nask) ولم يبق من هذه الأجزاء كلها الا جزء واحد يسمى (Vendidad) وقد نقل جزء يتصل بالعبادات من هذا الكتاب الى الهند بعد القرن التاسع المسيحى ، وهو يتألف من خمسة أجزاء

---

(١) لعله يعنى أن الذين فعلوا ذلك كان غرضهم أن يقبل عليها الناس قراءة ومطالعة وأن يطبقوا بينها وبين روح العصر وثقافته ، وهذا نفس ما وقع مع العهد القديم والجديد . وقد جنى ذلك على هذه الصحف جناية كبيرة ، فقد ثبت بطلان النظريات والشائعات علميا ، ففقدت « الكتب المقدسة » قيمتها ومكانتها .

(٢) The Religions of India. Delhi 1969 p. 4-5.

تسمى : (Yasna) بما فيها (Gatha) (Vespered) (Vendid) (Khorda Avasta) (١) .

أما القرآن الكريم الذى كان آخر الكتب المنـــزلة من الله ، ومصدقا لها ، ومهيمنا عليهـــا ، وعليه الاعتمـــاد فى هداية البشر ، وربط الخلق بالخالق ، والدعوة الى الله بعد البعثة المحمـــدية الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فشأنه يختلف عن شـــأن جميع الكتب السماوية كل الاختلاف ، فقد تكفل الله بحفظه وسلامته من كل تحريف وتبديل ، وزيادة ونقص ، فقال : « وانه لكتـــاب عزيز لا يأتيـــه الباطل من بـــين يديه ولا من خلفـــه تنزيل من حكيم حميد »(٢) وكـذلك تكفل الله بســلامته من مســخ وعبث ، ومحو من الذاكرة ، وارتفاع عن صدور الناس ، أو تعرض لنكبة تقضى عليه أو تبيده ، كما وقع أكثر من مرة للتـــوراة ، فقـــال : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(٣) وهى الكفالة بحفظـــه وبقائه ، وانتشاره وازدهاره وبقائه ، متلوا ومدروسا ومفهوما ، وغير مهجور قد انقطع العمل به بتاتا ، أو تنوسى ، فكل هذا ــ من معان ولوازم وآفاق ــ مما تنطوى عليه كلمة « الحفظ » العربيـــة البليغة .

ولمـــا قضى الله ببقاء هذا الكتاب على أصـــالته ونقائه ، وبنصه وفصه، كما نزل على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، سخر الله لهـــذا الغرض النفوس البشرية ، والدواعى الطبعيـــة ، والأسباب الخارجية ، والحوادث الكونية ، فكان لا يتحرك به لســـان النبوة ، ولا يدخل فى الأذن الا ويتهالك المسلمون على تلقفه وحفظه،

---

(١) دائرة معارف الديانات طبع نيويورك ١٩٤٥ م ص ٩٤ .

(٢) حم السجدة : ٤١ ـ ٤٢ .

(٣) الحجر : ٩ .

وتلاوته وتدارسه ، بدافع من الحب الذى جبلت عليه القلوب ، ولاعجازه وبلاغته ، ورنينه ، وحلاوة جرسه ، ثم بما وردت فى فضل حفظته وحملته من الآيات الكثيرة ، والأحاديث المستفيضة المتواترة(١) ، وقد قرنت حياة المسلمين به صلاة وتعبدا ، وأحكاما ومدنية واجتماعا ، وعلما وأدبا ، فبلغ تعلق قلوب المسلمين به الى حد الغرام والهيام ، وكثر عدد حفاظه فيهم من أقدم العصور ، فقد استشهد فى وقعة بئر معونة التى كانت سنة ثلاث للهجرة سبعون رجلا من المسلمين يقال لهم القراء(٢) ، وهكذا لم يزل عدد الحفاظ يتزايد بتزايد عدد المسلمين ، وكثرة الدواعى الى الحفظ وتنوعها ، حتى وصل الى حد يقضى منه العجب ، فى مدينة صغيرة ، وفى كل مجتمع اسلامى ، ويتناقله المسلمون صدرا من صدر ، ولسانا من لسان ، ويبلغ منهم الاتقان لحفظه ، والدقة فى صحته ، والبراعة فى استحضاره ، والتنافس فيه ، والشغف بقراءته والتعبد به الى حد لا يصدقه من غير المسلمين الا من عاشر المسلمين وعاش معهم ، وعرف عوائدهم ، وكان عدد هؤلاء الحفاظ يفوق الاحصاء فى كل زمان ، فضلا عن هذا الزمان الذى لا يقل عددهم عن ملايين .

وقد ألهم الله خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحق ، والقائمين بأمر المسلمين حين استحر القتل يوم اليمامة بالقراء ، فخشوا أن يكون فى استشهاد القراء فى المواطن الأخرى ضرر على بقاء القرآن ، ان كان جل الاعتماد على الحفظ ، وقد بدا ذلك لعمر الذى كان يسبق زملاءه الصحابة فى التعرف لحاجات المسلمين ومصالحهم ، وكان يتوارد خاطره بمقاصد التشريع ، فاقترح على

---

(١) راجع على سبيل المثال : رسالة « فضائل القرآن » للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى . تعريب الأستاذ واضح رشيد الندوى .

(٢) راجع البداية والنهاية ج ٤ ، ص ٧١ . وحديث بئر معونة حديث مشهور رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن .

أبى بكر وهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ وخليفة المسلمين ، جمع القرآن وكتابته ، وكان مفرقا فى الرقاع والعسب، واللخاف(١) ، وصدور الرجال ، وشرح الله صدر أبى بكر لهذا الأمر ، وكلف زيد بن ثابت لاختصاصه بهذا الشأن ، فقام بذلك خير قيام ، معتمدا على المحفوظ فى صدور القراء ، والمكتوب لدى الكتبة ، وبقيت تلك الصحف محفوظة يرجع اليها ، ويعتمد عليها ، حتى آل الأمر الى عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، وقد اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وتفرق القراء فى الأمصار ، وأخذ أهل كل مصر عمن وفد اليهم قراءته ، وخشى على المسلمين الاختلاف والاضطراب فى وجوه القراءة ، واللحن بدخول العجم فى الاسلام فى عدد كبير ، وخاف عقلاء الصحابة أن ينشأ عنه التحريف والتبديل ، فأمر عثمان رضى الله تعالى عنه بنسخ الصحف الأولى ، التى نسخت فى عهد أبى بكر فى المصاحف ، وكتبت على القراءات المتواترة ، وبعث عثمان الى كل أفق بنسخة من المصاحف واحتبس بالمدينة واحدا ، هو مصحفه الذى يسمى « الامام »(٢) وهذه المصاحف هى التى تمسك بها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وعليه درجت أجيالهم ، وبها ذلت ألسنتهم ، وحفظوا القرآن ، وعبدوا الله به ، وعليه الاعتماد فى العالم الاسلامى كله من أقصاه الى أقصاه ، ومن السنة الخامسة والعشرين التى كان فيها هذا الجمع الأخير الى يوم الناس هذا ، لا يشذ عنه شاذ ، ولا يوجد عنه اختلاف.

---

(١) العسب جمع عسيب أى جريدة من النخل وهى السعفة مما لا ينبت عليه الخوص . واللخاف جمع لخفة : حجارة بيض دقاق .

(٢) اقرأ تاريخ جمع القرآن وكتابته فى الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع قديما وحديثا . واقرأ خلاصتها فى كتاب « مباحث فى علوم القرآن » لصديقنا الفاضل الأستاذ مناع القطان . واقرأ الكتاب الممتع المفيد « النبأ العظيم » لمؤلفه الفاضل العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز .

بعد ما كانت قضـــية مسلمة بديهية ، وقد كان المؤلف يشـــعر بمسئوليته فى هذا المجال العلمى ويشعر برغبـة قوية فى الاسهام فى هذا الموضـــوع مع كثرة ما كتب فيـــه فى أوائل هـذا القرن ومنتصفه ٠

وقد كان من الممكن أن يتأجل ذلك لوقت آخر ولـكن القضية دخلت فى الزمن الأخير فى المرحلة الحاسمة التى لا تحتمل تأجيلا ، وأصدرت أكبر مملكة اسلامية حكمها فى هـــذه القضـــية(١) ذات الصلة العميقة الوثيقة بمصير الاسلام والمسلمين ، ومستقبل هـذا الدين ، وان كانت القضية قد انتهت على الصعيد الحكومى والادارى فانها فى حاجة الى أن تنتهى على الصعيد العلمى والفـكرى ، وليس هـــذا البحث الذى يراه القارىء الا محـاولة لتحقيق هذا الغرض ومساهمة من جندى صغير فى جهاد كبير ٠

وننشر هذا الفصل مفردا لتعم الفائدة ، ونسأل الله أن ينفع به الاســـلام والمسلمين ويزيدهم ايمانا الى ايمـان ويقينا الى يقين ويداوى بها القلوب المريضة والعقول الزائغة انه ولى التوفيق ٠

أبو الحسن على الحسنى الندوى
المجمع العلمى الاسلامى
ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند)

٧ من شوال المـكرم ١٣٩٤ هـ
٢٤ من أكتوبر ١٩٧٤ م

---

(١) المراد بها حكومة باكستان التى أعلنت فصل القاديانيين عن المسلمين ، واعتبارهم أقلية غير مسلمة ، ومما يجب الاعتراف به أن رابطة العالم الاسلامى فى مكة المكرمة قد كان لها دور ايجابى وفعال فى انارة العقول حول القاديانية وتزويد العالم الاسلامى بالمعلومات الصحيحة كما كان لعلماء باكستان ــ وفى مقدمتهم وعلى رأسهم العلامة محمد يوسف البنورى وزعماء الجمعيات الاسلامية ــ فضل كبير فى الوصول الى هذه النتيجة التى كان المسلمون يتوخونها منذ زمن بعيد ٠

فى مجتمع اسلامى أو فى مكتبة أثرية(١) ، وأجمع عليه المسلمون وتواتر منذ أن تم هذا العمل ، وأطبق عليه المسلمون الى هذا العصر الذى أصبح القرآن فوق متناول المحرفين والمغرضين والعابثين ، لكثرة الحفاظ والعلماء المتقنين له ، وكثرة التداول بين الناس ، وكثرة الطبعات ، وقد اعترفت الموسوعة البريطانية ، بأن القرآن هو أوسع كتاب على وجه الأرض(٢) .

وقد اتفقت كلمة المستشرقين ، وعلماء الغرب المحققين الذين لا يؤمنون بطبيعة الحال بكون القرآن منزلا من الله ، ووحيا أوحى به الى محمد صلى الله عليه وسلم على صحة نقله وانتهائه بنصه الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهنا بضع شهادات لكبار العلماء المسيحيين .

يقول سير وليم موير (Sir William Muir) الذى عرف تحامله على الاسلام ، وصاحب رسالته ، حتى اضطر ذلك زعيم حركة التعليم العصرى فى المسلمين فى الهند سيد أحمد خان ، مؤسس جامعة عليكراه الاسلامية الى وضع كتابه الشهير « خطبات أحمدية » فى الرد على كتابه « حياة محمد » (Life of Mohammed) يقول موير فى نفس هذا الكتاب :

« لم يمض على وفاة محمد ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة ، وقامت طوائف ، وقد ذهب عثمان ضحية هذه الفتن ،

---

(١) يقول أ. منجانا (A. Mangana) أستاذ جامعة منشستر سابقا : ان هنالك نسخا كثيرة مخطوطة للقرآن كلها فى مكتبات أورروبا العامة لعل أقدمها ما ترجع كتابتها الى القرن الثانى الهجرى وهذه المخطوطات لا يوجد فيها اختلاف عدا هنات من الكتابة العربية التى هى من عيوب الخط العربى القديم . وقريبا من ذلك قال نولديك (Noeldeke) (دائرة معارف الأديان والأخلاق) ج ١٠ ص ٥٤٨/٤٩ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية : مادة « محمد » .

ولا تزال هذه الخلافات قائمة ، ولكن القرآن ظـــل كتــاب هذه الطوائف الوحيد ، ان اعتمــاد هذه الطوائف جميعا على هذا الكتاب تلاوة ، برهان ساطع على أن الكتاب الذى بين أيدينا اليوم ، هى الصحيفة التى أمر الخليفة المظلوم بجمعها وكتابتهــا ، فلعلــه هو الكتاب الوحيد فى الدنيا الذى بقى نصه محفوظا من التحريف طيلة ألف ومائتى سنة »(١) .

ويقول وهيرى (Wherry) فى تفسيره للقرآن ج : ١ ص : ٢٤٩: « ان القرآن أبعد الصحف القديمة بالاطلاق على الخلط والالحاق ، وأكثرها صحة وأصالة » .

ويقول بامر (Palmer) مترجم القـــرآن المعروف الى اللغـــة الانجليزية فى كتابه (The Quran introduction) : « لم يزل نص القرآن الذى رتبه عثمان هى الصحيفة المتلقاة بالقبول ، المعتمد عليها عند المسلمين » (٢) .

ويقول لين بول (Lane Poole) :
« ان أكبر ما يمتاز به القرآن أنه لم يتطرق شك الى أصالته ، ان كل حرف نقرأه اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أى تغيير منذ ثلاثة عشر قرنا »(٣) .

اذن فلم تعد حاجة الى نبوة جديدة ، تزيل الالتباس ، وتميز بين الحق والباطل ، وتبين كذب المفترى ، ولا الى صحيفــة تحـــل محل هذه الصحيفة المنسوخة التى عبثت بها الأيدى ، واعتدى عليها المعتدون .

---

(١) (Life of Mohammed) الطبعة ١٩١٢ ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) ص ٧٠ .
(٣) Selections from the Koran P. C.
هذه الاعترافات ملتقطة من تفسير مولانا عبد الماجد الدريابادى ، بالانجليزية .

سكوت القرآن عن بعثة نبى جديد :

وهذا الكتاب الخالد الذى هو الفرقان والميزان ، والذى هو تبيان للناس ، والذى لم يهمل أصلا من أصول الدين ، يتوقف عليه فلاح الدين والدنيا ، وتتوقف عليه النجاة والسعادة ، ساكت عن ورود نبى جديد ، مع أنه كان من أهم المهام الذى لا يقبل الغموض والابهام ، فضلا عن السكوت ، فالكتاب الذى يذكر الشىء الكثير من أشراط الساعة ، والحوادث التى تحدث فى آخر الزمان ، ويتحدث عن الدخان(١) ، وعن الدابة(٢) ، ويأجوج ومأجوج(٣) ، من حوادث آخر الزمان ، كيف لا ينبىء عن نبى يبعث فى هذه الأمة أو غيرها ، ويهيىء العقول والنفوس — التى تنفر عن كل جديد ، وتفر من التكاليف والمسئوليات — للترحيب به وقبول دعوته ، والانضواء الى رايته ، وقد عرف اعتناء القرآن الزائد ، واهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم البالغ بكل ما ينفع فى الدنيا والآخرة، والتحذير عن كل ما يضر ، ويعرض لسخط الله وعقابه ، والحرص الشديد على أن يكون المسلمون على بينة من أمرهم ، مستعدين لمواجهة ما يتحدى دينهم ، ويفسد عقيدتهم ، ويغير على ايمانهم ، وقد زخرت كتب الحديث بالأحاديث الواردة فى المسيح الدجال ، وفتنته ومحنته ، أيعقل من هذا الكتاب الذى هو تنزيل من حكيم حميد، ومن هذا النبى الذى يصفه القرآن بأنه « عزيز عليه ما عنتم حريص

---

(١) « يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم » (الدخان ١٠ — ١١) .

(٢) « واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » (النمل : ٨٢) .

(٣) « حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون » (الأنبياء : ٩٦) .

عليكم ، بالمؤمنين رؤف رحيم »(١) أن يترك أمته فى عماء وظلام ، وجهالة مطبقة ، وحيرة مردية ، عن هذا الحدث الأكبر ، والنبأ العظيم الذى هو أهم بكثير مما لهج لسان النبوة بذكره ، وزخرت دواوين السنة بتفاصيله !

الأحاديث الصحيحة الصريحة المتواترة

ثم لم يقتصر النبى صلى الله عليه وسلم ، على ما جاء صريحا فى القرآن عن كمال هذا الدين ، وانتهاء سلسلة النبوة عليه ، مما لا يدع مجالا للشك لكل من عرف اللغة العربية ، ولم يبتل بفساد الذوق أو سوء النية ، أو ابتغاء الفتنة ، بل شرحه لأمته فى وضوح لا وضوح فوقه ، وفى بسط وتفصيل لا يتصور أكثر منه ، وضرب لذلك الأمثال البليغة ، وقد زخرت كتب الحديث بهذه الروايات التى وردت فى معنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء(٢) ونقتصر هنا على خمسة أحاديث وردت فى الصحاح حتى يتبين الصبح لذى عينين :

١ ـ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلف نبى ، وأنه لا نبى بعدى ،

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

(٢) قال العلامة السيد أنور شاه الكشميرى شيخ المحدثين فى عصره (م ١٣٥٢ هـ) فى كتابه « عقيدة الاسلام » : « تواترت الأحاديث فى ختم النبوة نحو مائتى حديث » (ص : ٣١٨) وقد جمع العلامة المفتى محمد شفيع الديوبندى كبير علماء باكستان الأحاديث الواردة فى هذا المعنى فى كتابه « ختم النبوة » فبلغت ٢١٠ حديثا ، وقد تزيد على ذلك عند المستقصين ، وتكلم على هذه الأحاديث وبحث فيها وفى أقوال العلماء والمتكلمين والأصوليين والصوفية العلامة محمود حسن خان الطوكى (م ١٣٦٦ هـ) مؤلف موسوعة « معجم المصنفين » فى كتابه « معيار السنة لختم النبوة » وهو من أحسن ما قرأت فى هذا الموضوع .

وسيكون خلفاء »(١) .

٢ ـ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »(٢) .

٣ ـ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون »(٣) .

٤ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى »(٤) .

٥ ـ عن جبير بن مطعم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنا محمد ، أنا أحمد ، وأنا الماحي الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على عقبى ، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى »(٥) .

---

(١) الجامع الصحيح للبخارى . كتاب المناقب باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ، ومسلم فى كتاب الامارة وأحمد فى مسنده ، وابن ماجه وابن جرير وابن أبى شيبة.

(٢) الصحيح للبخارى (كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين) ورواه مسلم وأحمد والترمذى وابن أبى حاتم ، واللفظ للبخارى .

(٣) مسلم . الترمذى . ابن ماجه .

(٤) رواه الترمذى فى (كتاب الرؤيا ، باب ذهاب النبوة) وقال هذا حديث صحيح ، وقال ابن كثير فى تفسيره ، أخرجه أحمد أيضا .

(٥) رواه البخارى ومسلم وأبو نعيم فى الدلائل .

اجماع الصحابة والأمة الاسلامية على انقطاع النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، واستبشاعها ورفضها لهذه الدعوى

وبسبب هذه الآيات البينات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة الصريحة ، التى بلغت حد التواتر ، أجمع الصحابة رضى الله عنهم – واجماعهم أكبر دليل من دلائل الثبوت الشرعى – على انقطاع النبوة بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا نبى بعده فى كل مفهوم من مفاهيم هذه الكلمة العربية التى كانوا يحسنون فهمها ، ولذلك اتفقت كلمتهم عن آخرهم على قتال مسيلمة الكذاب ، والحكم بكفره وردته ، لم يشذ منهم فى ذلك شاذ ، مع أن مسيلمة كان مقرا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان يؤذن للنبى صلى الله عليه وسلم ، ويشهد فى الأذان أن محمدا رسول الله(١) ، وكان مؤمنا بالقرآن يرى العمل به فرضا ، وانما كان يفسر القرآن حسب أهوائه ، ويدعى الالهام ، وكان يدعى أنه أشرك فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان أول فاتح لباب نبوة تابعة للشريعة المحمدية ، وكل من ادعى ذلك فى العصور الأخيرة كان تابعا له ، وقد قتل فى حرب اليمامة ألف ومائتا رجل من خيار المسلمين ، كما جاء فى كتاب كتبه أبو بكر الى خالد بن الوليد(٢) ، وقتل الأسود العنسى الذى ادعى النبوة فى عهد رسول الله صلى الله عليهم وسلم .

ثم أجمع المسلمون فى كل عصر على انقطاع النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن كل من يدعيها مارق من الدين ، متبع غير

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٥٤ .

سبيل المؤمنين(١) ، واستفاضت هذه العقيدة فى العـــالم الاسلامى كله ، وأصبحت جزءا من عقائد المسلمين التى يدينون بها ويعضون عليها بالنواجذ ، وتتوارثها الأجيال بعد الأجيال ، حتى أصبحت عقول المسلمين وطبيعتهم لا تسيغ ادعاء النبوة ولا تحتمله(٢) ،لذلك قل عدد المتنبئين فى المجتمع الاسلامى بالنسبة الى اتساع العـــالم الاسلامى ، وتفاوته فى فهم الدين والتمسك به ، وبالنسبة الى عدد المسلمين الضخم ، واضطراب الأمور فيهم ، وبالقيـــاس الى كثرة الدواعى الى هذه الادعاءات ، بالعكس من الأمم السابقة التى كثر فيها عدد المتنبئين مع ضيق رقعة الارض التى كانت تسكنها ، وقلة عدد المتدينين الذين كانوا يدينون بهذه الديانات .

ثم ان من ادعى النبوة لم يحقق من النجاح ، ولم يكتسب من الأتباع ما كان يخشى من جهالة المسلمين ، ودهاء المتنبئين ، وماوردت به الأخبار الصحيحة عن عدد المتنبئين (الذى لا يتجاوز سبعين الى

---

(١) قد نقل الاجماع على ذلك القاضى عياض (م ٥٤٤ هـ) فى كتابه المشهور « الشفاء » وبسط القول فيه . (« الشفاء » ج ٢ ص ٢٧٠ - ٢٧١) والعـــلامة الشهرستانى (م ٥٤٨ هـ) فى كتاب « الملل والنحل » ج ٣ ص ٢٤٩ . والعلامة ابن نجيم (م ٩٧٠ هـ) فى كتاب « الأشباه والنظائر » ص ١٧٩ ، والعلامة ملا على القارى (م ١٠١٦ هـ) فى شرح « الفقه الأكبر » ص ٢٠٢ . ومن كبار الصوفية ، الامام عبد الوهاب الشعرانى فى كتاب « اليواقيت والجواهر » ص ٢٥ . وكـــل ما نقل خلافه عن عالم من علماء المسلمين الذين عليهم الاعتماد ، اما مفترى عليه ، واما مدسوس فى الكتاب ، واما قطعت عبارته عن سياقها وحرفت عن موضعها ، واما أسيء فهم مراده عن قصد أو عن غير قصد .

(٢) لقد خلد التاريخ أسماء من ادعوا النبوءة ، ولقبهم المسلمون بالمتنبئين ، وبقى هذا العار واللقب الشنيع لاصقا بهم ، ولم يسامح التاريخ فى ذلك أشـــهر شاعر من شعراء العربية ، وقد انتهت اليه رئاسة الشعر ، وعقد له اللواء ، وهو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندى (م ٣٥٤ هـ) وقد غلب عليه لقب « المتنبى » فغطى اسمه .

أن تقوم القيامة) والذى سجله التاريخ من أسمائهم وأخبارهم قليل ، نظرا الى اتساع الأمة الاسلامية ، وامتداد نفوذ الاسلام ، واضطراب العقائد ، وتشتت الأغراض والمذاهب ، وتلك نتيجة رسوخ عقيدة ختم النبوة فى أذهان المسلمين وتغلغلها فى أحشائهم، ولوضوح الآيات ، ولصراحة الأحاديث ، التى وردت فى هذا المعنى وشهرتها واستفاضتها .

انقطاع النبوة تكريم للانسانية ورأفة بها :

أشارت الحكمة الالهية بختم النبوة الى أن الانسانية قد بلغت سن الرشد ، ومرحلة النضج والاستواء ، فقد خرجت من اطارها الضيق الذى عاشت فيه قرونا طويلة ، لأسباب تاريخية طبيعية يطول شرحها ، واستعدت لأن تدخل فى مرحلة جديدة من العلم والمدنية ، والتعارف والوحدة ، وتسخير الكون وطاقاته ، والتغلب على العوائق الطبعية والتقسيمات الجغرافية ، والفوارق السياسية ، وخرجت من مفهوم الأسر والقبائل ، والشعوب والأقاليم الى مفهوم العالم الفسيح ، والانسانية الواسعة ، والهداية العامة والعلم المشاع .

وكانت كل الشواهد والتجارب تدل على أن سعادتها فى الاعتماد على ما نزل من وحى ، وصح من عقيدة وتشريع ، وتعين من حدود وغايات ، وأصول وكليات ، عن طريق النبوءة التى كانت خاتمة للنبوءات ، وعن طريق الكتاب الذى كان مهيمنا للكتب ، والسير فى ضوئه على هدى وبينة ، وشق طريق الحياة الى الأمام ، والاعتماد فى مجال الحياة على القوى الطبيعية ، ووسائل العلم ، والعقل المؤمن ، والقلب السليم ، والسعى الهادف .

وكان شقاؤها فى الزمن الماضى بالتباس الأمور ، واختلاط الحق بالباطل ، وكثرة الدعوات المدعية للاتصال الخاص بالسماء ،

وتلقى التعاليم من فوق كذبا وزورا ، وتوزيع النـاس بين المـؤمن والكافر على هذا الأساس ·

وكان هلاك أمم كثيرة بالكفر بالأنبيـاء الذين كانوا يبعثـون فيها ، والذين كان يأتى بعضهم على اثر بعض ، فان النبوة ليست زعامة سياسية ، أو رئاسـة دنيوية يهون انكـارها ومحاربتهـا ، والثورة عليها ، انما هى فرقان بين الحق والباطل ، وبها تتم حجـة الله على هذه الأمة التى يبعث فيها النبى ، ويعرف المتتبع للقرآن أن سبب هلاك الأمم السابقة لم يكن بالكفر المطلـق ، وبمجرد فسـاد العقائد والأعمال والأخلاق ، انما كان لتكذيبها بالنبى المبعوث فيها، واستهزائها به ، واهانتها له ، وقد قص القرآن قصة هذه الأمم فى بسط وتكرار ، واجترائها على نبيها المرسل ، وما لقيه منها من أذى وسخرية واهانة أحيانا أخرى ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة يصعب استقصاؤها ، ونقتصر هنا على بعضها :

« وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب »(١) ·

« كلما جاء أمة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون »(٢) ·

« قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين ، فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءا ، فبعدا للقوم الظالمين »(٣) ·

« ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخرو منهم ما كانوا به يستهزؤن »(٤) ·

---

(١) سورة غافر : ٥ ·

(٢) سورة المؤمنون : ٤٤ ·

(٤) سورة المؤمنون : ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ·

(٣) سورة الأنعام : ١٠ وسورة الأنبياء : ٤١ ·

« ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » (١) .

« ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب »(٢) .
« وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون »(٣) .

وفى انقطاع النبوة توفير للجهود البشرية والطاقات الانسانية عن أن تمتحن وتستنفد بعد كل فترة زمنية ، أو على مسافة مكانية، فى التصديق والتكذيب ، والايمان والكفر ، وذلك شيءطبيعى ، اذا استمرت سلسلة النبوة ، واتصال الأرض بالسماء لتلقى الوحى الجديد ، والتعليم المفيد ، والشرع المزيد ، ونهض بعد حقبة من الزمان قد تطول وقد تقصر ، وعلى مسافة من المكان قد تبعد وقد تقرب ، من يدعى النبوة ، ويدعىأن الله يخاطبه ويوحىاليه، وأنه كلفتبليغ الرسالة ، ويحكم بكفر من يكفر به وينكر نبوءته ، ويحاربه حربا شعواء لا هوادة فيها ولا رفق ، ولا استثناء فيها ولا رفق ، وينحت من الأمة الواسعة ، التى ملأت الآفاق ، أمة صغيرة ، قد يبلغ عددها الى مئات من النفوس ، أو الى آلاف أو مئات آلاف ، وهكذا يتشاغل الناس – بعد كل فترة من الزمان – وفى أمكنة متعددة فى هذا العالم الفسيح فى وقت واحد ، بالحكم على هذا المدعى أو المدعين ، منهم المغبون فى عقله ، ومنهم المحترف بدينه ، ومنهم من هو صنيعة لغيره ، أو الملبوس عليه فى عبادته لقلة علمه ، وكثرة مجاهدته ، قد اتخذه الشيطان مطية ولعبة ، أو الحكومات ، أو أصحاب الأغراض السياسية وسيلة وذريعة ، الى غير ذلك من الامكانات التى لا ينكرها العقل ، ولا تنفيها التجربة ، ولا يكذبها الواقع ، فكل ذلك وجد فى

---

(١) سورة الرعد : ٣٢ .
(٢) سورة ص : ١٤ .
(٣) سورة الشعراء : ٢٠٨ .

الديانات الســابقة ، وظهر فى الأمة الاســلامية فى بعض الفترات التاريخية •

مشكلة كثرة المتنبئين فى الديانات الســابقة وخطرها على سلامة العقيدة ووحــدة الديانة

وتدل مطالعة صحف « العهد القديم » دلالة واضــحة على أن عددا كبيرا من أصحاب الطموح ، وعشاق الجاه ، والزعامة الدينية ، تزعموا النبوة والكهانة ، والاتصال بعالم الغيب اتصــالا مبــاشرا معتمدين فى ذلك على رؤى وأحلام كانوا يرونها ، وقد أحدث ذلك فتنة عظيمة فى المجتمع اليهودى ، حتى لزم أن ينبه عليها عن طريق الصحف التى نزلت على أنبياء بنى اسرائيل ، وهنا نقتصر على بضع شهادات ملتقطة من « العهد القديم » •

« هانذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة ، يقول الرب : الذين يقصونها ويضلون شعبى بأكاذيبهم ومفاخراتهم ، وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم ، فلم يفيدوا هذا الشعب فائدة يقول الرب » •
(ارميا ، الأصحاح ٢٣ ، آية ٣٢)

« فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميــكم وعائفيــكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل ، لأنهم انما يتنبأون لكم بالكذب ، لكى يبعدوكم من أرضكم ولأطردكم فتهلكوا» •
(ارميا ، الأصحاح ٢٧ ، آية ٩ ــ ١٠)

« فتحققت وهو ذا لم يرسله الله ، لأنه تكلم بالنبــوة عــلى ، وطوبيا وسنبلط قد استأجراه ، لأجل هذا قد استؤجر لكى أخاف وأفعل هكذا وأخطىء فيكون لهما خبر ردىء لكى يعيرانى » •
(نحميا ، الأصحاح ٦ ، آية ١٢ ــ ١٣)

« وكان الى كلام الرب قائلا: يا ابن آدم تنبأ على أنبياء اسرائيل

الذين يتنبأون ، وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اسمعوا كلمة الرب ، هكذا قال السيد الرب ، ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئا » .

(حزقيال ، الأصحاح ٢/١٣ ـ ٣)

« صار في الأرض دهش وقشعريرة ، الأنبياء يتنبأون بالكذب، والكهنة تحكم على أيديهم وشعبى هكذا أحب وماذا تعملون فى آخرتها » . (ارميا ، الأصحاح ٥ ٣٠ ـ ٣١)

« لأنه هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل : لا تغشكم أنبياؤكم الذين فى وسطكم ، وعرافوكم ، ولا تسمعوا لأحلامكم التى تتحلمونها ، لأنهم انما يتنبأون لكم باسمى بالكذب ، أنا لم أرسلهم يقول الرب » . ارميا ، الأصحاح ٨/٢٩ ـ ٩)

ويبدوا من الوثائق التاريخية اليهودية ، أن سلسلة هؤلاء المتنبئين استمرت الى بعد عهد تدوين صحف « العهد القديم » ، وقد تكاثر هؤلاء « المتنبئون » اليهود فى البيئات التى كان اليهود فيها هدف الاضطهاد والقسوة والاهانة ، واستشرف المجتمع اليهودى من ينقذه من هذه الحالة المزرية ، وينتصف من عدوه ، ويرد اليه الاعتبار والكرامة ، واستغل هذه النفسية المكلومة الموتورة بعض الأذكياء الذين لا يخافون الله ، ولا يرجون حسابا ولا كتابا ، فاعتبروا ذلك فرصة سانحة لتحقيق مآربهم الشخصية ، أو أغراضهم السياسية ، ففاجأوا أبناء ملتهم بمبشرات وتكهنات ، ووعود خلابة، وأسسوا عليها نبوتهم الجديدة ، وكان لها سحر عجيب فى النفوس البائسة ، التى ضاقت ذرعا بالظروف القائمة التى طال أمدها ، فأقبل عليهم عدد كبير من المصدقين والمصفقين ، واضطربت العقائد ، وشاعت البدع ، ونشأت طوائف محدثة هالت الغيارى على التعليمات اليهودية الأصيلة وأفزعتهم ، يقول البرت ايم تامسن (Albert M.

Taymson) عضو المجمع التاريخى اليهودى الأمريكى البريطانى فى دائرة معارف الأديان والأخلاق :

« يكثر الحديث فى تاريخ اليهود عن المتزعمين الذين كان كل واحد منهم يدعى أنه « المسيح الموعود » وذلك فى الفترة التى أعقبت تجريد الحكومة اليهودية عن الحرية ، ودامت الى عدة أجيال ، وكان هؤلاء المبشرون بالعهد الزاهر ، والغد الباسم لا يزالون يبعثون فى اليهود – فى أحلك عصورهم – أمل العودة الى وطنهم الذى أجلى منه آباؤهم فى الزمن الماضى ، وكان أكبر عدد من هؤلاء المتزعمين ينهض فى أمكنة وأزمنة يبلغ فيها اضطهاد اليهود أوجه ، وكانت تلوح طلائع الثورة على هذا الوضع المخزى ،وكانت هذه الحركات غالبا تتسم بالسمة السياسية ، وقد غلبت الصبغة السياسية على هذه الحركات فى الزمن الأخير ، ورغم أن هذه الحركات لم تكن تتجرد عن المظهر الدينى تجردا كاملا ، ولكنها كانت فى غالب الأحيان تشجع على البدع ، وتوسع بذلك نفوذها ، وتقوى سلطانها ، لذلك كانت جنايتها عظيمة على التعاليم اليهودية الأصيلة ، وتنجم فرق متطرفة تنضم أخيرا الى المسيحية أو الاسلام(١) .

وقد استمر التنبؤ والتزعم للنبوة بدوافع شخصية وطائفية واقتصادية وسياسية الى ما بعد المسيح ، وهنا شهادات من « العهد الجديد » تدل على كثرة المتنبئين وخطرهم .

« وفى تلك الأيام انحدر من أورشليم الى انطاكية وقام واحد منهم اسمه « اغابوس » ، وأشار بالروح أن جوعا عظيما كان عتيدا أن يصير على جميع المسكونة الذى صار أيضا فى أيام كلوويس قيصر » . (أعمال الرسل ، الأصحاح ١١/ ٢٧ – ٢٨)

---

(١) دائرة معارف الأديان والأخلاق (Encyclopaedia Religion and ethics ج ٨ ، ص ٥٨٨ .

« وبينما نحن مقيمون أياما كثيرة انحدر من اليهودية نبى اسمه أغابوس فجاء الينا ، وأخذ منطقة بولس ، وربط يدى نفسه ورجليه، وقال هذا يقول الروح القدس ، الرجل الذى له هذه المنطقة ، هكذا سيربطه اليهود فى أورشليم ، ويسلمونه الى أيدى الأمم » •
(أعمال الرسل ، الأصحاح ، ٢١/ ١٠،١١)

« احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة » •
(انجيل متى ، الأصحاح ، ٧ / ١٥)

« ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة كى يوجدوا كما نحن أيضا فيما يفتخرون به ، لأن مثل هؤلاء هم رسل كذبة ، فعلة ، ماكرون ، مغيرون شكلهم الى شبه رسل المسيح » •
(رسالة بولس الرسول الثانية الى أهل كورنتوش ، الأصحاح ، ١١ ، ١٢ ، ١٣)

« أيها الأحبار لا تصدقوا كل روح ، بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله ، لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم » •
(رسالة يوحنا الأولى ، الأصحاح ، ٤/١)

« وكان قبلا فى المدينة رجل اسمه سيمول ، يستعمل السحر، ويدهش شعب السامرة قائلا : انه شىء عظيم ، وكان الجميع يتبعونه من الصغير الى الكبير قائلين : هذا هو قوة الله العظيمة » •
(أعمال الرسل ، الأصحاح ، ٨/ ٩ ، ١٠)

« ولما اجتازا الجزيرة الى بافوس ، وجدا رجلا ساحرا ، نبيا كذابا يهوديا ، اسمه باريشوع » •
(أعمال الرسل ، الأصحاح ، ١٣ / ٦)

« فأجاب يسوع وقال لهم انظروا لا يضلكم أحد فان كثيرين

سيأتون باسمى قائلين أنا هو المسيح ، ويضلون كثيرين » .
(انجيل متى ، الأصحاح ، ٢٤ / ٤ ، ٥)

« هل يجتنون من الشوك عنبا ، أو من الحسك تينا » .
(انجيل متى ، الأصحاح ٧ / ١٦)

أما ما يتصل بالعهد المسيحى والحديث عن مشكلة ظهور المتنبئين والكهان ، والمتزعمين للهدايا الربانية المباشرة ، فنقتصر هنا على شهادة واحدة لكاتب مسيحى صاحب اختصاص فى الموضوع، يبدو للمتأمل فيها تذمر العلماء المسيحين من هؤلاء المتنبئين الذين تكاثر عددهم فى العهد الأخير ، واشفاقهم البليغ على سلامة العقيدة ووحدة الديانة ، وهدوء الحياة ، يقول « ايدون ناكس متكل » (Edwin Knox Mitchell) استاذ تاريخ الكنيسة اليونانية الرومية ، والكنيسة الشرقية فى مهد الديانات بـ « هارت فورد Hart Ford) فى مقال كتبه لدائرة معارف الديانات والأخلاق ، يقول هذا الكاتب :

« ان ظهور المتنبئين الأدعياء الذين كانوا يدعون الحكمة التى مصدرها الغيب وما وراء العقل ، أحدث اضطرابا وعدم ثقة ، وجعل قادة الكنائس وأساقفتها يشعرون بالخطر الذى كان يتهدد مستقبلها، ويحلق على رؤوسهم ، ولكنهم لم يهتدوا بعد الى طرق تأديبية ملائمة وافية بالمراد ، لزجر هؤلاء الأدعياء والدعاة ، الذين كانوا يزعمون أن الله يكلمهم ويبوح لهم بأسراره المكتومة ولم يكتشفوا بعد ميزانا يمتحن به مدى روحانية هؤلاء المتزعمين ، ومبلغا من الصدق ، وكان العثور على هذا المعيار والمحك قد أصبح لازما لمصالح الكنيسة ، وكانت الكنيسة مهتدية اليه لا محالة ، لتصون الدين ــ عن طريق هذا المحك ــ عن الفوضى فى المبادىء الأساسية ، والحياة عن الاتجاه الى الالحاد ، وهكذا تستطيع أن تنشىء سياجا حول كيانها تعيش فيه بهدوء وسلام » .

ويقول وهو يتحدث عن كثرة الأدعياء والمتنبئين فى العالم المسيحى :

« ان تأليف « هيرمو باستر "Hermo Paster" الذى سماه "Mand" ومؤلفات « اجناتيس » "Ignatius" مملوءة بتنبيهات وتعليمات ضد الدجالين من المتنبئين والمعلمين » .

وتدل مطالعة كتاب "The didache" على أن الكهانة كانت لا تزال تتمتع بحرية زائدة ، بل كانت لها مكانة مرموقة فى سوريا (أو مصر) مع أنها كانت فى غالب الأحيان مصطنعة مزورة ، وكانت الكنيسة ترفضها رفضا باتا ، ولكنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكانت لتفقد اعتبارها فى المستقبل القريب ، وتواجه معارضة واجهها جميع الأشخاص الذين غلوا فى ادعاء الحكمة الغيبية، الى العارفين الروحانيين (غنوسطين) "Gnostics" والمارسيين "Marcion" كان لهم أنبياء يختصون بهم ، وكنائس تتصل بهم وكان من الصعب فى بعض الأحيان التمييز بينهم ، وكان حركة « مونتانزم » (Montanism) مشجعة لدعوى النبوة ، وكانت فى الحقيقة سعيا وراء احياء الأحوال البدائية التى مرت بها المسيحية، حين كان كل مؤمن بهذه الديانة حرا فى استخدام المواهب التى أكرمه الله بها .

واتخذت الكنيسة موقف الدفاع (ضد هذا السيل الجارف من النبوءات والكهانات ، والمزاعم والادعاءات) وهكذا فرضت رقابة وحجرا عن طريق الوثائق المكتوبة على الكهانة والنبوءات ، وهكذا فقدت الدعاوى الطويلة العريضة ، و « المعجزات وشفاء الأمراض قوتها ونشاطها ، ولم ينتهى القرن الثانى المسيحى ، حتى أصبح رؤساء الكنيسة والمسئولون عنها مسيطرين على أصحاب الكهانات

والنبوءات ، مالكين لزمامهم »(١) .

ختم النبوة نتيجة حتمية لوضع هذا الدين الكامل :

ثم قد اقتضى ذلك ـ ختم النبوة ـ طبيعة هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، تاما كاملا ، فى العقائد والشرائع، والتعاليم الخلقية والاجتماعية والمدنية ، حاويا للأسس السليمة الصالحة ، التى يقوم عليها المجتمع الصالح والمدنية الرشيدة فى كل زمان ومكان ، ويبلغ بها الفرد البشرى ذروته فى التقدم والاكتمال ، ويحقق به أهدافه الصالحة من غير أن يشعر بعرقلة فى هذا السير الطبيعى ، والبلوغ الى قمة الحسن والاحسان ، والجمع بين حسنى الدنيا والآخرة ، ومن غير أن يشعر بنقص فى مجال التشريع ، وعجز عن مسايرة الحياة ، وتحقيق مطالبها الفطرية ، بل يجد هذا التشريع سابقا للزمن ، باهرا للعقل البشرى .

وقد دلت دراسة الكون ، وتتبع سنن الله فى هذا العالم الفسيح ، وفى ماضى الأمم وحاضرها ، أنه لا فضول عنده ولا تقصير ، وأن كل شىء عنده بمقدار ، وأنه ينزل الأشياء كلها بقدر ، وأن كل ما نراه مما يبدوا زائدا أو قليلا ، أو متجاوزا أو متخلفا ، انما هو من قصور نظرنا وقلة علمنا ، والتكليف والتشريع أحق من التكوين والعالم الطبيعى ، بالدقة والاتقان والتناسب ، لأنه غاية ، والكون وسيلة ، فلو لم يقم دليل نقلى على اختتام النبوة على محمد صلى الله عليه وسلم لعرفنا بحكم العقل أن النبوة الجديدة التى يمتحن بها البشر بعد النبوة المحمدية ارهاق للبشرية ، فيما لا لزوم

---

(١) راجع مقال « النبوة والتنبؤ (فى الدور المسيحى) دائرة معارف الديانات والأخلاق (Encyclopaedia of Religion and ethics 1939 pp. 383/84).

له ، وجهاد فى غير جهاد ، ومخالف لما عرفناه من سنن آلله فى خلقه وفى هذا العالم .

حيوية هـــذا الدين ، وقوةتوليده ، وانتاجـه

للعارفين وأصحاب اليقين والمصلحين والمجددين :

وليس لأحد من أفراد الأمة بل من أفراد البشر ، فى أى عصر من العصور ، عذر فى عدم الوصول الى مراتب اليقين ، وأعلى درجات القرب والوصول ، وغاية الرضا والقبول ، والاخبـات والانابة ، وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، الا ضعف ارادته وفتور همته ، واخلاده الى الأرض واتباع الهوى ، أو جهله للقرآن والحديث ، والا فهذا الدين زاخر بالحياة والقوة والجدة ، متكفل بجميع السعادات الدنيوية والأخروية ، يبلغ الانسان بالعمل به – فى جـد وعـزم واخلاص – الى درجة من درجات القرب والسمو والكمال ، ليست فوقها الا النبوة .

« وحسبنا الكتاب المعجز الخالد الذى يتدفق بالحياة والقوة ، والذى لا تبلى جدته ، ولا تنقضى عجائبه ، و « الصلاة » التى تزخر بالقوة والحيوية كذلك ، ولها من الفضل والتأثير فى ربط الصـلة بالله والوصول اليه ، وقطع منازل القرب والولاية ما ليس لشىء آخر فى الدين ، وبهما وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة فى كل عصر وجيل ، الى مكانة فى الايمان واليقين والعلم والمعرفة ، والربانية والروحانية ، والقرب والولاية لا يصل اليها ذكاء الأذكياء ، وقياس العقلاء والحكماء ، وما زالوا فى عدد يفوق العد والاحصاء ، ولا يزالان يفيضان النمو والحياة ، والجدة والنشاط ، والروحانية الصـــافية الدافقة فى نفوس هذه الأمة وأجيالها ، تستغنى بهما هذه الأمة عن نبوة جديدة ، وبعثة جديدة ، وتعيش متصلة بالله مرتبطة به فى كل دور من أدوار حياتها ، وفى كل عهد من عهود التاريخ ، تستمد

لنفسها من القرآن والصلاة رابطة قلبية وقوة روحية ، وتمد الى العالم المعاصر يد الدلالة والهداية ، ولذلك يقول الله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير »(١) .

ثم ان هذا الدين تكمن فيه قوة حافزة عجيبة ، على الثورة على كل ما يخالف هذا الدين وينحرف عن الجادة ، ويعرض الانسانية وبقايا الخير للهلاك والتلف ، باعثة على التحدى للباطل ، ومحاربة قوى الشر والرذيلة ، والدعاة الى الافساد والالحاد ، ورد الأمر الى نصابه ، وعلى الحسبة على الأخلاق ، وكلمة حق عند سلطان جائر ، والمجازفة بالحياة ، والتخلى عن المنافع واللذات ، والانكار على البدع والخرافات، والفتن والضلالات، مهما كلف ذلك من خسارة فى الأموال والأرواح ، وعذاب للأبدان والأجسام ، فلم يزل هذا الكتاب الذى يفرض على المسلمين أن يكونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، غير متعاونين على الأثم والعدوان ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، أولياء لله ولأتباعه ، محاربين للشيطان ولأوليائه ، لا يبيعون دينهم بدنياهم ، ولا يؤثرون العاجلة على الآجلة ، وترد الأخبار الصحيحة الصريحة الحاسمة فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد بما استطاعه الانسان من يد ومن لسان وقلب ، والوعيد الشديد لمن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومالأ أعداء الله والمحرفين والمبتدعين ، وتواتر ذلك واستفاض ، فظل

---

(١) سورة الحج : ٧٨ ، ما بين الهلالين مقتبس من كتاب المؤلف « الأركان الأربعة » .

هذا الكتاب ينشىء فى كل ناحية من نواحى العالم ، وفى كل فترة من فترات التاريخ الاسلامى ، من يحمل راية الجهاد والتجديد ، ويقود حركة الاصلاح والدعوة ، ويخوض المعركة ، غير مكترث بالعواقب « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا(١) ٠

وقد بشر نبى النبوة بأن الله يقيض لهذه الأمة فى كل قرن ــ وهو فترة زمنية ذات اعتبار فى حياة الأمم ــ من يقوى صلتها بهذا الدين وينفخ فيها روحا جديدة ، فقال : « ان الله يبعث لهذه الأمة على كل رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها »(٢) ٠

وهو الكتاب الذى منع من الانحراف مع تيار الفساد والضلالة، والترف والجاهلية ، ونفخ روحا جديدة فى أجساد ضعيفة ، وأشعل شعلة الايمان والحماس فى همم هامدة ، وقلوب خامدة ٠

اتصال تاريخ الاصلاح والتجديد فى الاسلام ، وسره :

« ان تاريخ الاصلاح والتجديد متصل فى الاسلام ، والمتقصى لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلمة فى جهود الاصلاح والتجديد ، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ويرفع صوت الحق ، ويتحدى القوى الظالمة ، أو عناصر الفساد ، ويفتح نوافذ جديدة للتفكير ، والدارس لهذا التاريخ والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهدا قصيرا ساد الظلام فيه على العالم الاسلامى ، وخبت مصابيح الاصلاح ، وخفتت أصوات

---

(١) سورة الأحزاب : ٢٣ ٠

(٢) رواه أبو داود عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعلماء الاسلام بحوث ورسائل فى شرح هذا الحديث وذكر من كان مصداقه فى تاريخ الاسلام ، تجلت فيها أذواقهم واتجاهاتهم ٠

الحق ، ومات الضمير الاسلامى ، وتبلد الشعور ، وأضرب الفكر الاسلامى عن العمل ، ان هذه الثغرات التى قد نشعر بهافى دراستنا العابرة للتاريخ الاسلامى ، وفى نظرتنا العجلى فى كتبه ، ان مردها الى منهاج التأليف الذى اتخذه المؤرخون للاسلام قديما وحديثا ، ودرجت عليه الأجيال ، ان النقص فى التأليف وليس فى التاريخ ، أو بكلمة أخرى : ان المسؤلية على المؤرخين والمؤلفين ، لا على المجددين والمصلحين ، الذين ظهروا حينا بعد حين ، وحفظوا على الاسلام جدته وشبابه ، وقضوا على كثير من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات ، حتى أصبحت مطمورة فى ركام الماضى ، لا يهتدى اليها أحد فى هذا العصر الا بعد بحث وعناء ، وكثير من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها الا بشق الأنفس ، واجهاد العقل والعين ، وقد كان بعض هذه المذاهب وبعض الحركات تتمتع بحماية البلاط ، وتستند الى الملك والسلطان والمال والجاه ، وقد كانت فى عصرها صاحبة حول وطول ، ولكنها طويت ــ بفضل جهود هؤلاء المسلمين المصلحين المخلصين ــ فى صحائف الماضى ، وأصبحت موضوع علماء الآثار ، لا محل لها الا فى المتاحف والصحائف»(١) .

جناية عقيدة استمرار النبوة أو « الامام المنتظر » على الشعور بالمسئولية ، وقوة مقاومة الفساد :

ولا شك أن الفضل فى اتصال تاريخ الجهاد والتجديد ، والبطولات والمغامرات ، فى سبيل اعادة الأمور الى نصابها ، والمياه الى مجاريها الطبيعية ، والأخذ على يد الظالم ، والانتصار للمظلومين فى تاريخ الاسلام ، يرجع الى اعتبار الأمة ــ خاصة العلماء منها ــ نفسها مسئولة عن اقامة الحق والعدل ، والموازين القسط ، والأمر

---

(١) مقتبس من « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » ص ٢٧ .

بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة الى الدين الخالص ، لا تنتظر لذلك نبيا جديدا يبعث ، وقوة غيبية تتصل بالسماء اتصالا مباشرا، ولا تعتمد فى ذلك على شىء غامض يجل عن العقول والظواهر ويدق فهمه ، فيقوم على مجرد التقليد والتقديس ·

والأمم والطوائف ـ الاسلامية وغير الاسلامية ـ التى تمسكت بمثل هذه العقائد، لم تعتبر نفسها مسئولة ولا مكلفةلمحاربة الباطل وقوى الشر ، واقامة الحق والعدل ، وعاشت فى عالم الخيال والأمانى والأحلام قرونا طويلة ، واستسلمت للأوضاع الفاسدة ، وأخلدت الى الدعة والراحة والتواكل ، وضعفت فى تاريخها حركة الاصلاح والتجديد ، وخفضت أصوات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويحار المتتبع لتاريخهـــا فى فهم السر فى هذا الفـــراغ الذى لا يحمل على مجرد مصادفة ، ويعجز عن تعليله ، وما ذلك الا لاعتماد هذه الطائفة الاعتماد الزائد على شخصية غامضة مقدسة ، تحمل من علوم الأسرار والأمانة الباطنة ، والصلة السرية بينـــه وبـــين فاطر الكون وصاحب الرسالة ما لا يحمله غـــيرها ، وســتفاجىء العـــالم بظهورها فى وقت مناسب ، وتقلب الأوضاع(١) ·

ولا شك أن قضية نبى جديد ، وأنبياء جدد ، وعقيدة استمرار النبوة ونزول الوحى والمكالمات والمخاطبات الالهية التى أسس عليها بعض المدعين نبوتهم ، واستدلوا بها فى صدق دعواهم ، أدق وأخطر، وأعمق تأثيرا فى العقول والنفوس ، فانها تضعف ثقة هذه الأمـــة

---

(١) وخير مثال لهذا الاعتقاد والاعتماد ، ما يعتقده الشيعة الامامية فى الامام الغائب ، وهو الامام الثانى عشر فى اعتقادهم ، فيعتقدون أنه برجوعه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وهو محمد المهدى ابن الحسن العسكرى ، ولد ببغداد سنة ٢٥٥ هـ ويعتقدون أنه دخل مع أمه سردابا فى « سامراء » ولم يعد الى الآن وهو حى لم يمت (اقرأ « أصل الشيعة وأصولها » للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ص ٢ ـ ١٠٩) ·

بصلاحية دينها وشريعتها ، وخلود رسالتها ، واستغنائها عن نبوة جديدة ، وعن تعليمات جديدة من السماء ، وتحول بينها وبين اعتمادها على طاقتها وصلاحيتها وكفاحها ، من حيث تشعرون ومن حيث لا تشعر ، هذا عدا أن امكان ذلك يجعلها فريسة للأدعياء والدجالين ، والمحترفين المشعوذين ، ولعبة لدهائهم وذكائهم .

رحمة بالأمة الاسلامية ومنة عليها :

فكان من أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة ومن خصائصها سد هذا الباب الى الأبد ، والاعلان السافر الصريح الواضح البين بأن النبوة قد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الدين قد أكمل للمسلمين قبل أن يفارق الرسول هذا العالم ، ويلحق بالرفيق الأعلى وأن الله قد أتم نعمته على هذه الأمة ، فلا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أمة بعد الأمة الاسلامية ، وتلك نعمة حسد المسلمين عليها حكماء اليهود وفقهاؤهم الذين عرفوا بلاء اليهود من أدعياء النبوة ومتزعميها فى العالم اليهودى ، وما جر ذلك من بلبلة فكرية واضطراب عقائدى ، وصراع مذهبى ، وتمزق اجتماعى ، فقد جاء فى الحديث الصحيح : « جاء رجل من اليهود الى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين انكم تقرأون آية فى كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت ، لا تخذنا ذلك اليوم عيدا ، قال : وأى آية ؟ قال : قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى » فقال عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ : « والله انى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عشية عرفه فى يوم جمعة.»(١) ، وهذا يدل على عظم هذه النعمة وجلالتها ، حتى يتحسر

---

(١) رواه البخارى ، وأصحاب الصحاح والسنة ، والامام أحمد ، واللفظ لأحمد.

علماء اليهود ، ويحسدوا المسلمين عليها ، كما أنه يـدل عـلى أن الأديان السابقة لم يكن لها حظ من هذا الاعلان والضمان ، والكرامة والكفالة ، وكان ذلك بطبيعة الحال ، فانهـــا كانت فى دور النشوء والارتقاء ، وكانت السلالة البشرية فى دور التطـور والانتقـال ، وكانت الرسالة الأخيرة الخاتمة التى فصلت على أكبر قامـة وأدق مقياس لم تنزل بعد ، وتلك مزية خص الله بهامحمد صلى الله عليه وسلم آخر الرسل وخاتم النبيين ، وأكرم الله بها هذه الأمة ، آخر الأمم وأوسطها •

الحارس من الفوضى الفكرية :

لقد بقيت عقيـــدة ختم النبوة تحرس هذا الدين من غائلـة المبتدعين ، وفتنة المتنبئين والمتزعمين ، وتحرس هذه الأمة من الفوضى الفكرية والدينية ، التى كانت الأمم السابقة والديانات السالفة فريستها ، واستطاع هذا الدين واستطاعت هـذه الأمة ـ بفضـل هذه العقيدة ـ أن تقاوم المؤامرات الدقيقة ، وتحتمل الصـدمات العنيفة ، وبقيت وحدة فى الدين والعقيدة ، لم تواجهثورة داخلية أو اضطرابا فكريا ـ الا ما كان من الباطنية فى العهد القديم ـ ولا تنقسم هذه الأمة فى الأمم ، لكل وجهتها ، ولكل مركزها الروحى ومصدرها العلمى والثقافى ، ولكل تاريخ منفرد وماض مختلف •

فضل عقيدة ختم النبوة على المدنية :

وقد بعثت هذه العقيدة فى الانسان الثقة ببلوغه سن الرشد ، وكان ذلك حافزاللانسان على التقدم فى مضمار المدنية ، والاعتماد على العلم ، والتجربة فى الحياة اليومية ، فليست حاجة العالم اليوم أن ينتظر وحيا جديدا من السماء فيرفع بصره اليها ، وانما حاجته اليوم أن يفكر فى مواهب هذا الكون وطاقاته التى خلقها الله تعـالى

ليشغلها الانسان فى صالحه ، ويستخدمها لحوائجه ، كما أن حاجته اليوم أن يفكر فى نفسه ، وينظر الى الأرض لبناء حياة أفضل ، تقوم على أساس من الدين والأخلاق ، ان الاعتقاد بانتهاء النبوة يبعث فى الانسان روح الطموح والتقدم ، ويحثه على بذل مواهبه ، ويعين له المجال السليم لكفاحه وجهوده ٠

لولا عقيدة ختم النبوة لفقد الانسان ثقته بنفسه ، وبقى فى ريب دائم ، وظل شاخصا ببصره الى السماء ، بدلا من أن ينظر الى الأرض ، وفقد ثقته بمستقبله ، وثارت شبهات وشكوك حوله، ووقع فريسة المتنبئين على الدوام ، ولا يظهر متنبىء يؤكد له « أن الروضة الانسانية كانت ناقصة ، فجئت وبلغت الى كمالها »(١) الا أنه يضطر الى اعتقاد أن هذه الروضة اذا كانت ناقصة الى الآن ، فأى ضمان لكاملها فى مستقبل الحياة الانسانية ٠

وهكذا يستمر انتظاره لمن يبلغ بهذه الروضة الى حد الكمال ، دون أن يتمتع بأزهارها وأثمارها ، ودون أن يهمه سقيها وريها ٠

يقول الدكتور محمد اقبال فى كتابه « تجديد الفكر الدينى فى الاسلام » :

« ان النبوة فى الاسلام لتبلغ كمالها الأخير فى ادراك الحاجة الى انهاء النبوة نفسها ، وهو أمر ينطوى على ادراكها العميق ، لاستحالة بقاء الوجود معتمدا الى الأبد على مقود يقاد منه ، وأن الانسان لكى يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغى أن يترك ليعتمد فى النهاية على وسائله هو ،ان ابطال الاسلام للرهبنة ، ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام ، واصراره على أن النظر فى الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الانسانية ،

---

(١) من كلام متنبىء الهند المرزا غلام أحمد القاديانى فى شعر له ٠

كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة »(١) .

فتنة المتنبئين الكبرى :

لم يمتحن الاسلام والمسلمون فى تاريخ الاسلام الطويل بفتنة أعظم وأدق من فتنة المتنبئين ، الا أن دعوة أكثرهم لم تلقى نجاحا يذكر ، وقد ماتت فى مهدها ، ولم يبق لها عين ولا أثر ، ولكن الشأن يختلف فيما يختص بمتنبىء شبه القارة الهندية فى القرن التاسع عشر والعشرين : المرزا غلام أحمد القاديانى (١٨٤٠ ـ ١٩٠٨ لأسباب سياسية اقتضت ذلك(٢) .

فقد فتح باب النبوة على مصراعيه ، وقال : « ان اتباع النبى صلى الله عليه وسلم يمنح كمالات النبوة ، وان العناية بذلك والاهتمام ينحت الأنبياء الجدد ويخلقهم »(٣) ، وقال نجله وخليفته المرزا بشير الدين محمود : « لقد اعتقدوا أن كنوز الله قد نفدت ، ما قدروا الله حق قدره ، انكم تتنازعون فى نبى واحد ، وأنا أعتقد أنه سيكون هنالك ألف نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم »(٤) .

وقد أحدث ذلك فوضى فى النبوة ، وفقدت كلمة « النبوة » جلالتها وحرمتها وقداستها ، وأصبحت ألعوبة وعبثا ، وهان على الناس بصفة عامة بعد المرزا أن يتنبأوا ، وما عرفنا فى التاريخ الهندى ـ الذى لا يزال محفوظا الى حد كبير ـ شخصية أنكرت ختم النبوة ، وتجرأت على تأسيس دين جديد ، سوى الامبراطور «أكبر» غير أنه لم يدع النبوة ، كما ادعاها المرزا بصراحة وتنظيم ، ولكن

---

(١) « تجديد الفكر الدينى فى الاسلام » ترجمة عباس محمود . ص ١٤٤ .
(٢) راجع كتاب المؤلف « القاديانى والقاديانية » .
(٣) « حقيقة الوحى » للمرزا غلام أحمد ، ص ٩٦ .
(٤) « أنوار خلافت » ص ٦٢ .

المرزا هو أول من فتح هذا الباب بوجه عـام ، ونهض عـدد من المتنبئين ، وقد عد منهم الاستاذ محمد اليـاس البرنى الى عـام (١٩٣٦ م ــ ١٣٥٥ هـ) سبعة ، ولا شك أنه لم يكن احصـاءا دقيقا ، والا فان قام أحد باحصائهم بشيء من الاهتمام والدقة ،لوجد فى نفس مقاطعة « بنجاب » أكثر من هذا العدد بكثير ٠

وقد احتج على كثرتهم وضعف آرائهم ، وسفاهة أحـلامهم المرزا بشير الدين محمود نفسه فى احدى محاضراته ، يقول :

« لقد نشأ فى جماعتنا كثير ادعوا النبوة ، وأعتقد أنهم ليسوا فى الدعوى كاذبين غير واحد منهم ، وفى الحقيقة انهم ألهموا فى أول الأمر ، ولا عجب اذا كان هذا الالهام باقيا الى الآن ، ولكن الخطـأ الذى وقعوا فيه هو أنهم أخطأوا فى فهم تلـك الالهامـات ، وأنا شخصـيا أعـرف بعض هؤلاء حتى أستطيع الاقرار باخلاصهم وخشيتهم لله ، ولا يدرى مـا فى قـلوبهم الا الله ، سـوى أنهم كانوا فى بادىء الأمر مخلصين ، وكانت بعض الهاماتهم من الله ، ولـكن الذى سـبب خسـارتهم هو أن حكمتهـا خفيت عليهم فعثروا »(١) ٠

فتنة « المكالمات والمخاطبات الالهية »
ورؤية البـارى تعـالى فى الدنيـا :

ويعرف المطلع على التاريخ الفكـرى وتاريخ التصـوف ـ الاسلامى وغير الاسلامى ـ أن الاتصال بعـالم الغيب عن طريق الرياضات والمجاهدات ، وتلقى الالهـام والكـلام ، والهتـافات والأصوات من هذا العالم ، كان مدخلا واسعا للأوهام والمغـالطات

---

(١) « الفضل » أول يناير ١٩٣٥ م ٠

والتناقضات ، ودخل منه الشيء الكثير من الأضاليل والأباطيل عن قصد وعن غير قصد ، كان من الصعب دائما التمييز بين مصادرها ودرجاتها ، وما هو من الله ، وما هو من الشيطان(١) ، وما هو نابع عن العادات والمألوفات، والعلم السائد والثقافة المنتشرة والعقائد التى نشأ عليها هذا « الملهم » أو « المحدث » أو « المكشوف له » وقد بين علماء هذا الشأن الذين سلكوا هذا الطريق أن التجرد عن تأثير العوائد والعقائد والبيئة فى تلقى هذه « المغيبات » وفهمها يكاد يكون مستحيلا(٢) .

---

(١) وقد أشار الى هذا الامكان الدكتور محمد اقبال الذى كان من كبار علماء الفلسفة فى العصر الحديث ، فقال : « انى أعترف بأن مؤسس الجماعة الأحمدية (القاديانية) سمع صوتا ولكن الحكم بأن هذا الصوت كان من عند الله الذى بيده الحياة والقوة ، أم كان مصدره الافلاس الروحى الذى كان سائدا فى الناس ، يتوقف على هذه الحركة التى خلقها هذا الصوت ، الى أن قال : « اذا أعتقد أن هؤلاء الأبطال الذين أسهموا فى تمثيلية « الحركة الأحمدية » كانوا ألعوبة فى يد الانحطاط والزوال (حرف اقبال ص ١٥٧ ـ ١٥٨) . وأبلغ من ذلك ما قاله فى البيت : « أعاذ الله من الهام ملهم نشأ وعاش فى حكم أجنبى ، فانه أضر بالأمم ، وأشد فتكا بها من الفاتحين الوحوش أمثال « جنكيز » و « هولاكو » .

(٢) لقد شرح الامام الربانى الشيخ أحمد السرهندى (م ١٠٣٤ هـ ـ ١٦٢٤ م) هذه النقطة شرحا وافيا فى بعض رسائله وجاء باشارات بليغة فى هذا الموضوع تقوم على التجربة الشخصية والعلم العميق والاطلاع الواسع ، انه يرى أن العقل المجرد والكشف المجرد شيئان يندر وجودهما ووقوعهما ، ومن المصادفة العجيبة والتوارد الغريب أن الفيلسوف الألمانى الشهير « كانت » (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) (Emmanual Kant) الذى ظهر بعده بمائة وثمانين سنة ، أبدى عدم ثقته بالعقل المجرد ، وقدرته على التعبير والحكم متحررا عن البيئة والمجتمع ، والتراث ، والعادات والمعتقدات (انظر كتاب نقد العقل المجرد (Critic of Pure Reason)) وقد تقدم الامام الربانى خطوة وبحث فى قضية الكشف المجرد والالهام المجرد ، لأنه سار على هذا الدرب ، وجرب هذه الأمور بنفسه ، وأهل مكة أدرى بشعابها (اقرأ رسالته الى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله من أبناء الشيخ الكبير عبد الباقى النقشبندى الدهلوى ـ رقم ٢٦٦ ـ المجلد الأول) .

وكل من جعل هذه « المكالمات والمخاطبات الالهية » أو رؤية البارى تعالى شرطا للهداية أو للنجاة ، أو لكمال الايمان(١) ، وأسس على ذلك نبوة جديدة أو دعوة جديدة ، وألزم ما لم يلزم ، وجنى على هـــذا الدين الذى هو عام للبشر جنـاية عظيمة ، وأفقده بساطته وسهولته ، وعمومه للبشرية ، وفتح بابا واسعا للفساد والاضطراب والفوضى ، كما فعل المرزا غلام أحمد القاديانى ، فقد جعل « المكالمات والمخاطبات الالهية » شرطا لصحة الديانة ، ونتيجة طبيعية للعمل بالأحكام الشرعية ، والسعى فى العبادة ، وزعم أن الدين الذى لا توجد فيه هذه المخاطبات الالهية ، انما هو دين باطل وميت ، بل هو دين الشيطان المؤدى الى جهنم ، واذا كان أتباع دين لم يتشرفوا بهذه النعمة رغم عباداتهم وعلمهم بالأحكام الشرعية ، فانما هم فى جهل وغواية(٢) .

وتهافت هذا الرأى وسخافته غنية عن الرد عليه ، وبسط القول فيه ، وحسب القارىء أن الصحابة ـ رضى الله تعالى عنهم ـ الذين كانوا زرع النبوة وغرس القرآن ، والجيل المثالى فى تاريخ

---

(١) كمـــا فعل ذلك السيد محمد بن يوسف الحسينى الجونفورى (٨٤٧ ـ ٩١٠ هـ) فادعى أن الانسان اذا لم يسعد بالمشاهدة الالهية ولم ير البارىء تعالى بالعين أو بالقلب فى اليقظة أو فى المنام فليس بمؤمن ، وقد أحدث ذلك اضطرابا عظيما فى المجتمع الاسلامى الممتد من شرق الهنـــد الى غرب أفغانستان فى القرن العاشر الهجرى ، وأصبح الشغل الشاغل للمسلمين ، العلمـــاء منهم والسلاطين ، وكان السيد المشار اليه صاحب صدق وعزيمة ، واستعداد باطنى عظيم ، وكان له شأن رفيع فى التأثير فى النفوس والقلوب ، والدعوة الى الله ، وايثار مرضاته على غيره ، والزهد فى الدنيا وأسبابها ، والهجرة فى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المكر ، الا أنه شبه له فى فهم ما كان يكشف له أو يسمعه ، فادعى أنه « المهـدى الموعود » الذى يظهر فى آخر الزمان ، وغلا فى دعوته ، واشترط ما ليس بشرط ، وكلف المسلمين بما لم يفرضه الله عليهم ، ولم يطالبهم به (اقرأ ترجمته فى الجزء الرابع من نزهة الخواطر للعلامة عبد الحى الحسنى) .

(٢) اقرأ كتاب « براهين أحمدية » للمرزا غلام أحمد القاديانى ج ٥ ص١٨٣ .

البشرية ، وعلى أكتافهم قام الاسلام ، لم يدعوا هذه « المكالمات والمخاطبات » ورؤية البارى تعالى بالعين أو القلب ، ولم ينسب التاريخ اليهم ذلك ، ولم يعرف عنهم التنافس فيه أو الحرص عليه ، أو التأسف على فواته ، فكيف بمن جاء بعدهم ، ولم يبلغ شأوهم فى الدين والعلم(١) ٠

وقد لوحظ فى التاريخ مرارا أن كل دعوة متطرفة قامت على مثل هذه الدعاوى والافتراضات والتجارب الشخصية ، لم تفد الا انشاء طائفة متطرفة تنشق عن المسلمين وتنابذهم ، وقد تكفرهم ، وتتحول على مر الزمان ديانة مستقلة ، وتصبح مشكلة جديدة فى المجتمع الاسلامى والانسانى تعيى كبار العقلاء والقادة حلها والتغلب عليها(٢) ، ولا تخدم مصلحة من مصالح الانسانية واصلاح النفوس والدعوة الى الله(٣) ٠

الالهام الجماعى لمصلحة الاسلام والمسلمين :

وقد أكرم الله بنصيب كبير من « الالهام الجماعى » الذى لاخطر فيه ولا ضرر ، وهو أن يلهم عدد من أصحاب النفوس الزكية ، والقصد الصالح والعلم الراسخ الصواب فيما تحار فيه الألباب ، وتختلف فيه الآراء والسعى وراء عمل فيه مصلحة الاسلام والمسلمين وتقوية للدين وذب عن حوذته ، فيشعرون باندفاع الى القيام بهذا العمل ، لا يستطيعون له قهرا ولا دفعا ، وكأنهم مضطرون الى ذلك محاسبون عليه ، فيبذلون فى ذلك النفس

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب المؤلف « القاديانى والقاديانية » الباب الرابع ، الفصل الثانى ٠

(٢) وقد عالجت حكومة باكستان هذه المشكلة بفصل الطائفة القاديانية عن المسلمين واعتبارها أقلية غير مسلمة ، رسميا ، وهذا عند كتابة هذه المقالة ٠

(٣) اقرأ تاريخ الحركات الهدامة فى الاسلام وفى الديانات الأخرى ٠

والنفيس ، ويهجرون فى سبيله راحاتهم ولـــذاتهم ، ويرون فى تحقيقه أكبر سعادة وأعظم لذة .

وقد يكون ذلك بعدد قليل كما وقع فى قضية الأذان لعبد الله ابن زيد بن عبد ربه ، وعمر بن الخطـــاب رضى الله عنهمـا ، فقد توافقت رؤياهما ، ولقن كل واحد منهما كلمات الأذان فى المنام ، ووافق عليه رسول الله صلى الله عليـــه وسلم واستحسنه ، فشرع الأذان الذى ينادى به للصلاة فى العالم الاسلامى اليوم(١) ، وكما وقع فى أمر ليلة القدر ، فقـد روى الشيخان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجالا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أروا ليلة القدر فى المنام فى السبع الأواخر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر ، فمن كان متحريها فليتحرها فى السبع الأواخر » وقريب من ذلك أمر صلاة التراويح التى ثبت أصلها عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تركها بعد ثلاثة أيام لئلا تفرض على أمته فرضا فتشق عليها(٢) ، وكان المسلمون يصلونها فرادى ، فجمعهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عليها ، وكانت اشارة عمر على ذلك الهاما من الله وتوجيها منه ، فكان فى ذلك خير كثير ، وألهم الله المسلمين المحافظة على هذه الصلاة بجماعة ، والحرص عليها ، وختم القرآن فيها ، وكان عاملا كبيرا من عوامل حفظ القرآن والمحافظة عليه ، والسبق فيه ،واحياء ليالى رمضان ، ويرى الفرق واضحا بين أهل الســنة الذين أخذوا بسنة التراويح ، وبين الطوائف التى أنكرتها ، فى انتشار حفظ القرآن ، وتدارسه والاهتمام به .

---

(١) اقرأ الحديث الطويل الذى رواه أبو داود والترمذى والدارمى وابن ماجة.

(٢) اقرأ ما رواه البخارى ، عن عائشة رضى الله عنها فى « باب فضل من قام رمضان » .

وقد يكون ذلك بعدد كبير وجم غفير يستبعد العقل السليم تواطؤهم على الكذب ، أو تآمرهم على الشره ، فيعود ذلك على الاسلام والمسلمين بنفع عظيم وخير كثير ، أو تسد به ثلمة فى ثغر الاسلام ، أو يزال به وهن يدخل على المسلمين ، أو يحقق مقصدا من مقاصد الدين العظيمة ، ومن أمثلة هذا الالهام الجماعى المبارك ، الذى ألهم به عدد لا يحصى كثرة من العلماء الراسخين والعاملين المخلصين جمع القرآن فى المصاحف فى زمن أبى بكر ، وجمع الحديث وتدوينه فى القرن الأول والثانى الى ما بعدهما ، واستنباط الأحكام والاجتهاد الفقهى من القرن الأول الى عصر المجتهدين وأئمة المذاهب فى القرون الأولى ، ووضع علم النحو ، وعلم القراءات ، وأصول الفقه ، الى غير ذلك من العلوم النافعة الضرورية ، لحفظ سلامة اللغة التى نزل بها القرآن ، وصيانة القرآن من اللحن والفوضى ، وكتأسيس المدارس وتأليف الكتب ، وطرق نشر العلم ، وغير ذلك مما اقتضته الأحوال ، واختلاف الزمان والمكان .

وكالعناية بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، وتبيين غوائل النفس ومكائد الشيطان ، والربانية الصافية التى لا تشوبها البدع حتى أصبح ذلك علما مستقلا ، وتخصص له رجال بلغوا فيه درجة الاجتهاد ، واعتبروه أكبر عبادة وأعظم جهاد ، فأحيى الله بهم موات القلوب ، وشفى بهم أعلاء الارواح ، نشطوا فى الدعوة الى الاسلام ، فانتشر بهم الدين الحنيف فى أنحاء العالم البعيدة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكان لهم فضل خاص فى انتشار الاسلام فى شبه القارة الهندية (وخاصة فى المناطق التى لم يغزها جيش اسلامى كـ « كشمير » و « بنغال الشرقية ») وفى جزر المحيط الهندى ، وقارة افريقيا ، وكان لهم فضل كذلك فى مقاومة قوى الباطل وكلمة حق عند سلطان جائر ، ومواجهة الزحف الاجنبى[1] .

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى فصل « بطولة وكفاح ، لا بطالة واستسلام » فى كتابنا « ربانية لا رهبانية » طبع دار الفتح ـ بيروت ١٣٨٨ هـ .

وكالرد على الفرق الضالة ، والفلسفات الالحادية المثيرة للشـكوك والشبه ، الناشرة للاضطراب فى العقيدة والوهن فى العمل ، وقد تجرد لذلك خيار المسلمين علما وذكاء ، ومقدرة علمية وقوة ايمان ، فكان كل ذلك الهاما من الله ، تكرم به جماعة كبيرة من المسلمين فى كل دور من أدوار التاريخ الاسلامى ، وفى كـل مركز من مراكز العلم والحضارة ، فكان دليلا على عناية الله بهذه الأمة التى هى آخر الأمم وأمل الانسانية ، وعلى مكانتها من الله ، وهذا الالهام لم ينقطع والمدد الالهى الذى لم يتخلف ، دليل ساطع على ختم النبـوة وانقطاعها بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يوجد له نظير بهذا الوضوح والاستمرار فى الأمم السابقة ، اذ لم يكن فى حاجة اليه، فقد كانت سلسلة النبوة مستمرة ، والنبوة باقية .

التفريق بين المسلمين :

ان البلبلة الفكرية والاضطراب العظيم الذى تحدثه هـذه النبوءات الكثيرة المزعومة ، وما يؤول ذلك الى تفريق بين المسلمين وتمزيق وحدة الأمة الاسلامية ، يبعث فى كل قلب مسلم وحشة وقلقا ، ولم يتعود الناس فى هذا العصر الذى يتسم بسمة اللادينية والالحاد ، أن يهتفوا بقولهم « أنا الحق » ولكنه اذا نشأت هنا فى العالم الاسلامى « هواية » التنبؤ بتأثير المرزا غلام أحمد القاديانى ، ودعاته المتحمسين ، وظهر رجال فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى يرفعون راية « النبوة » ، ويكفرون الذين لا يقبلون دعوتهم كنتيجة حتمية للنبوة ، فلا ينتج ذلك سوى بلبلة فكرية وفوضى دينية ، واصطدام بين الأفكار ، ويتوزع العالم الاسـلامى بين معسكرات مختلفة ، وتقع هذه الأمة التى جاءت لمحو كل عصبية من اللـون والجنس والوطن ، وانشاء الأخوة الاسلامية ، فريسـة التفريق

والتكفير ، والعصبيات الدينية(١) ٠

لقد أحس بخطر القاديانية الأستاذ محمد على اللاهورى(٢) ، وأبداه فى احدى مقالاته بكل قوة ووضوح ، غير أنه لم يفكر أن فاتح هذا الباب انما هو امامه المرزا غـــلام أحمد ، وأنه هو أول شخص عرض فكرة استمرار النبوة كحركة ودعوة ، يقول الاستاذ محمد على يناشد أهل البصيرة والانصاف :

« أنشدكم بالله ، ان صح الاعتقاد بأن النبوة لم تنقصع ، وأن الأنبياء لا يزالون فى غدو ورواح الى هذا العالم ، كما صرح بذلك محمود أحمد(٣) فى » أنواز الخلافة » أفلا تزال هذه الطوائف التى تعد بالآلاف تكفر بعضها بعضا ، وتغيب الوحدة الاسلامية ؟ نفرض أن هؤلاء الأنبياء يبعثون فى الجماعة الأحمدية (القاديانية) وحدها ، أفلا تمزق بذلك الجماعة الأحمدية نفسها ، انكم لا تجهلون السنن القديمة ، وتعرفون كيف كان الناس ينقسمون بين موافق ومعارض

---

(١) وقد كان العلامة الدكتور محمد اقبال الشـاعر الفيلسوف ، دقيق النظر جدا فى قوله المأثور : « اننا نعتقد أن الاسلام دين أوحى الله به ، ولـكن وجـود الاسلام كمجتمع أو أمة يتوقف على شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ٠ واعتقاد أنه كان آخر الرسل وخاتم النبيين ، وهو خط التحديد الدقيق بين الدين الاسلامى والديانات الأخرى ٠

(٢) هو أمير الفرع اللاهورى الذى يسمى « الجماعة الأحمدية اللاهورية » وهو صاحب ترجمة القرآن الانجليزية المعروفة ، وتفسير « بيان القرآن » ومؤلفـــات كثيرة ، وهو لا يقول بنبوة المرزا غلام أحمد ، ويؤول ما صدر عنه من تصريحات فى هذا الصدد ، انما يعتقد أنه كان « المسيح الموعود » ، ومجدد القرن الرابع عشر الأعظم ، والمصلح الأكبر ٠

اقرأ لمعرفة آرائه وتأويلاته فى القرآن ، الفصل الثالث من الباب الرابع من كتاب « القاديانى والقاديانية » ٠

(٣) هو نجل المرزا غلام أحمد القاديانى ، وخليفته الثانى ٠

على مبعث نبى ، ان الله الذى قضى بتوحيد شعوب العالم وأممه ، أيمزق المسلمين ويقطعهم اربا اربا ، يكفر بعضهم بعضا ، وتتوتر بينهم العلائق والصلات ، وتصبح الأخوة الاسلامية أثرا بعد عين ؟ اعلموا اذا كان الله قد وعد لهذا الدين بأن يظهره على الدين كله ، وهو لا يخلف الميعاد ، فان الاسلام لا يبتلى بهذه المحنة ، ولا يأتى يوم ينفرد كل نبى بحزبه ، وتتوزع المسلمين دعـــوات مختلفة ، ورايات مختلفة ، ومراكز روحية مختلفة ، ويصبح كهنتها محتكرين للايمان والنجاة ، يكفرون سائر المسلمين »(١) ٠

والحاصل أن عقيدة انتهاء سلسلة النبوءات ، وتعليم البشر العقائد والشرائع عن طريق الوحى والملائكة والروح الأمين ، وما تتوقف عليه نجاتهم فى الآخرة ، على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربى الهاشمى القرشى ـ عليه الف الف صلاة وسلام ـ وانقطاع النبوة والأنبياء بعده ، وكونه خاتم الرسل ، وموضح الســـبل ، وامام الكل ، من أجل مواهب الله تعالى ونعمه على هذه الأمة ، ورحمة بالانسانية الممزقة وترفيه لها ، وتوفير لجهودها وطاقاتها ، من أن تضيع فى غير سدى ، وفيما لم تكلفه ، وجامعة لشمل هذه الأمة المحمدية ، حافظة لوحدتها وأصالتها وقوتها ، باعثة لثقتها بنفسها، وصلاحية دينها وخلوده ، واعتبارها نفسها مسئولة عن اتجاه العالم وموقفه ومصيره ، حافزة على الاصلاح والتجديد ، والجهاد فى سبيل الله فى كل زمان ومكان ، وهو الأساس المتين الذى يقوم عليه البناء الاسلامى ، كمجتمع وأمة ، ورسالة خالدة ٠

ألد أعداء الاسلام :

لذلك كان ألد أعداء الاسلام وأدهاهم وأمكرهم ، وأضر على الاسلام والمسلمين ، وأنفع لأعداء الاسلام والكائدين له من ادعى

---

(١) رد تكفير أهله قبله ٠ لمحمد على ٠ ص ٣٤ ٠

نبوة جديدة - فى أى مفهوم من مفاهيمها - أو دعا اليها ، وتولى كبرها .

وصدق الله العظيم :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم ، أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون »(١) .

* * *

(١) سورة الأنعام : ٩٣ - ٩٤ .

الفهرس

صفحة

صفحة

هـذا الـكـتـاب

أن يكون هناك عمر طبيعي وحيوى لكل صور الحياة .. تلك حكمة الهية بالغة ولازمة لمنطق الأشياء .. فاذا ما انتهى هذا العمر .. لم تعد هناك حاجة اليها . أما اذا كانت الحاجة اليها قائمة ودائمة .. فانها تبقى على اختلاف الزمان والمكان .. تستمر وتنتشر .. وتورق وتثمر ...

وبنفس المنطق الذى جرت به هـذه الحكمة على صـور الحياة .. جرت أيضا على المثل الانسانية .. التى من أجلها أنزل الله تعالى نعمة النبوة .. فبقدر مابقيت الحياة الانسانية فى مراحلها وظروفها المختلفة تصبو الى نبى جديد .. والى رسالة جديدة .. بقدر حاجتها بعد الأسوة الحسنة .. محمد صلى الله عليه وسلم ، ورسالته الخالدة .. الاسلام .. الى عقيدة ختم النبوة .. ذلك أن الله سبحانه قد فرض هذه العقيدة حين شاءت حكمته تمام وكمال المثل الانسانية .. فجاءت النبوة فى الاسلام بالغة كمالها الأخير .. مدركة الحاجة الانسـانية الى انتهـاء النبوة نفسـها ..

حسين عاشور

المختار الإسلامى
ص.ب ١٧٠٧ القاهرة
هاتف ٩٣٦٤٩٦

مطابع الأهرام التجارية